الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء التاسع عشر

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ١٤١٦/ ١٩٩٥

فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وان تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لي بها ولـد أعتمد عليـه، وأسند ملكهـا إليه، ورحـل إلى الزرقـا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخـوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينهـا، ونواحي بمصر بينهـا وكان قد مـال الملك العزيـز إليه لاشفـــــــاقـــــــه عليـــــــه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعـروفة بالشرقيـة، واعتمد عليـه في نيابته في سـائر الممالك المصرية، ولما سمـع تقي الـدين هـذا الخبر نبا ونفـر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيـه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغـرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمـت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مـديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعـة، وقد كان أحد مماليكه المعـروف بقراقوش، قد جمع مـن قبل الجيوش وسار إلى بـلاد برقة فملكها، وهـزته الأمنيـة للنفائس مـن بلاد نفـوسة فـأدركها، وتجاوز إلى إفريقيـة وهو يكتب أبـدا إلى مالكه الملك المظفـر يرغبه في تلـك المملكة ويقـول إن البـلاد سائبـة، فلما تجدد لتقـي الـديـن ماتجدد، وتمهـد لعمـه العادل مـاتمهد، عاد لـه ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومـالت إليه عسـاكر مصر لبذلـه، وقدم مملوكه بـوزبا في المقدمة، فلما انتهـى الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهـم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة بـه أتم، والمصلحـة منه أخـص وأعم، وإذا تـوجه تقـي الديـن، واستصحب معـه رجالنـا المعروفـة، ذهب العمـر في اقتناء الـرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لجاج تقي الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يـأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسـار معه عمه العادل، فدخلا القاهـرة في خامس شهر رمضـان، وأما الملك الظاهـر فسيره السلطان إلى حلب وأنعـم عليه بها، وبسائر قـلاعها وأقـاليمها، وندب معـه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشـو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي الديـن في آخر شعبان، وتلقـاه السلطان وخيـم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحب به ودخل دمشق، وعاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملوكه زين الدين بوزبا فإنه رتب له عسكر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحب المغرب فأخذه مأسورا، ثم أغزاه مع الغز في ثغر من الثغور فألفاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتب الفاضل إلى تقي الدين:« سبب هذه الخدمة ماإتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب، والدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي ماإندفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهب الله هذه النعمة، وقد كان الشمل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا والله ماانقطعت، يامولانا إلى أين وماالغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد، أوفي شكوى من عدم، كيف نختار على الله، وقد اختار لنا، وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا، وكيف ننتجع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقب الرأي وانظر في أواخره
فطالما اتهمت قدما أوائله

لازال مولانا يمضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: إعلم ياموِلاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأ نا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العزيز والعادل فإن السلطان قرر حالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول الى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم مايكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان، فسار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: « الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لايعرفان إلا المولى والدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منهما إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « مروا القرابة أن يتزاوروا ولايتجاوروا »، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عارفا »، وفي غد ماليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة: « تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم»[٣٤] طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفت منا قلوب وأنفس
ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلموا أني من الصبر مفلس
ظننتم بعيني أنها تألف الكرى
فهلا بعثتم طيفكم يتجسس
وليس لقلبي في السرور تصرف
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه
وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف مناظر
يقول دليل الدل عندي أقيس
إذا درست ألحاظه السحر أصبحت
رسوم اصطباري درسا حين تدرس
ولم أنس أنسي بالحمى رعى الحمى
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس
لحى الله أبناء الزمان فكلهم
صحيفته أودى بها المتلمس

ولولا ابتسامات المظفر بالندى
لما راق نفسي صبحه المتنفس
جلت شمس لقياه الحنادس بعدما
عرتنا وهل يبقى مع الشمس حندس
وصار به هذا الزمان جميعه
نهاراً فما للناس ليل معسعس
إذا صال فالمفلول ألف مدرع
وإن جاد فالمبذول ألف مكيس
وليس بمغبون على فضل رأيه
ويغبن في الأموال منه ويبخس
إذا أطلق الملك المظفر في الوغى
أعنته فالشمس بالنقع تحبس
فداك ملوك لا يلبون داعيا
وكلهم عن دعوة الحق يخنس
تشكى إليك الغرب جور ملوكه
فاشكيته والجور بالعدل يعكس
سيهدى إلى المهدية النصر والهدى
بهديكم فيها وتونس تؤنس
رددت كراديس الفرنج وكلهم
لدى الأسر في غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم
وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكم
وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجدا
فلله نصرانية تتمجس
وكم كفى الاسلام سوءا بملككم
كفيتم على رغم المعادين كل سو

ولا يفتــــح البيــــت المقــــدس غيركــــم
وبيتكــــم مــــن كــــل عــــاب مقــــدس
لهم كــــل يــــوم في جهــــاد مثلــــث
إذا نصروا التــــوحيــــد فيء مخمــــس
إذا مــا تقــي الــديــن صــال تســاقطــت
لأقــدامــــه مــــن عصبــــة الشرك أرؤس
ومــــا عمــــر إلا شبيــــه سميــــه
شــديــد على الأعــــداء ثبــت عمــرس

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، ومايتحرك لنا نسيم ولاالسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا:يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السراديب، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:

قل لأبي الفضل قول معترف
مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصـ
ـطرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والز
يج هواء وهباء

قلـــــت للسبعـــــــة ابـــــرا
م ومنـــــــــع وعطـــــــــاء
ومتــــــى ينـــــزلـــــن في المـــــــ
ـــــــيزان يستـــــــولي الهواء
وتثير الـــــــرمـــــــل حتـــــــى
يمتلي منـــــــــه الفضـــــــاء
ويعـــــــم الأرض خســـــــف
وخـــــــراب وبـــــــلاء
ويصير القـــــــاع كالقـــــــ
ــــف وكـــــالطـــــود العـــــراء
وحكمتـــــــم فـــــأبـــــى الحا
كـــــم إلا مـــــا يشـــــاء
مـــــا أتـــــــى الشرع ولا
جـــــاءت بهذا الأنبيـــــاء
فبقيتـــــم ضحكـــــــة تضـــــــ
ــــــحك منهـــــا العلماء
حسبكـــــم خـــــزيـــــا وعـــــارا
مـــــا تقـــــول الشعـــــراء
ثـــم مـــــا أطمعكـــم إلـــى الـــــ
ـــــحكم إلا الأمـــــراء
ليـــــت إذ لم يحسنـــــوا في الـــــ
ــــدين ظنـــــا ومـــــا أســـــاءوا
فعلى اصطـــــــرلاب بطـــــــ
ـــليموس والـــزيـــج العفـــاء
وعليـــــــه الخزي مـــــا
جـــــادت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال تـوفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبـد الجبار النحوي، وكـان آية في النحـو ثقة عالما صـالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنـة جاء نعي أتابـك محمد بن أتابـك إيلدكز المعـروف بالبهلـوان، وهـو الذي كـان نـزل على خلاط في العـام الماضي، وكانت حيـاته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعـده تلك الممالك، واخترب أصفهـان وإلى اليوم مـن سنة أربـع وتسعين ماوضعـت الحرب أوزارها، وتـولى بعده أخوه قـزل أرسلان، فأزال مهـابة الملك السلجـوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعـدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قـال:واشتغل السلطـان في بقيـة سنة اثنتين وثمانين بـدمشـق بالصيـد والقنص والانتهـاز فيه لبوادر الفرص، وكـان يركب إلى تل راهـط للصيد بالبـزاة والشواهين مع ممـاليكه الخواص الميـامين، وله شاهين يجري كـأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صـاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجـاز وعد صيـده عرقـوبا، فطلبتـه من السلطـان، فقال: أنـت للقلم والـدواويـن، فمالك والبـزاة والشـواهين؟ فقلـت: يكون في ملكـي وكـل مايقنصـه يأمر لي به المولى، وهـذا أربح لي وأنفع وأولى، فقـال: نعم، فلما أصبـح سير لي سبـع عشرة قطعـة مـن طير وحجـل، وقـال: هـذا صيـد شاهينـك في طلق واحد على عجـل، فملكت ذلك الشـاهين خمس ست سنين والسلطان يصطـاد به ولي قنصـه، وله مطلعـه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتـة ملاحظـا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلـك المنائح، فيالله دره من سلطـان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعـاد مزحها جدا، واعتـده لي حقامعدا، فـدون حقه على مثلـه أن يؤسف، ومـن حقنا بعده أن نتلوا(يا أسفي على يوسف)(٣٥) .

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، وماالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبدأ بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولايحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الـراوندان، وقـد سلمهـا إلى علـم الديـن سليمان، ثـم مضـى إلى خدمـة السلطان.

قـال ابن القـادسي: وقـدم الحاج في عـاشر صفر، فـأخبروا أن سيـف الاسلام أخـا صلاح الديـن ملك مكة وضرب الدنـانير فيها باسـم أخيه، ومنـع مـن قـولهم حـي على خير العمـل، وشرط على العبيـد أن لايـؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتـى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بـالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصـل الخبر إلى بغـداد بقتـل البهلـوان، وأن القتـال وقـع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأمـوال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقـي الأمر على ذلك مـن سابـع محرم إلى ربيع الآخر، فـاحصوا من القتلى أربعـة آلاف رجل وسبـع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقـام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكـان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعـد الفتنة التي وقعت بها، ومعـه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والـرساتيق بالقتـل والصلب، وصادرهم وأشير على قـزل بأن يلزم أهـل البلد سبعين ألف دينـار، فقال لـه الشحنة: أهل البلـد فقراء، فقال بعـض المصالحة لقزل: مـانأخذ إلا من الأغنيـاء، فوثب عيـار فقتل المصلحـي، وكان العيـار متعلقا على قـاضي البلـد، فوكـل الشحنة بـدار القاضي، فجاء ابـن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـه إخراج الموكلين بـه وتحالفا على إخـراج الشحنة مـن البلد، وأن يقطعـوا خطبة السلطـان الذي نصـب قزل، ففعـل ذلك في سابـع شوال، ثـم كثر القتـل في البلد فكل من في قلبـه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجـل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحـاب ابن الخجندي، وكـان الحريق والنهـب واحراق الدور في أصحـاب القاضي، وجـرى القتال يوم عـرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعـايش، وخربت الأسواق ووقع الغـلاء، ومات الناس

من الجوع، وبقـي أهل أصفهان على قـدم الخوف، وأخذت ثيـاب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يـأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص،[٣٦] فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطاعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يمارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري ابن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين،سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه:« كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لايحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لايرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضـل ولــده مقيـم بــرأس الماء في جمع عظيـم مــن العظماء، وعنـده الجحـافـل الحافلة والحواصـل الحاصلـة، والعسـاكر الكـاسرة، والقسـاور القاسرة، وهـو ينتظر أمرا مـن أبيه، ويكتـب إليه ويقتضيه، وانقضـى من السنـة شهران، وطـال بهم انتظار السلطـان، فأنهض منهـم سرية سريـة، وأمرها بـالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومـن جاء من الشرق وديـار بكر مظفـر الديـن كـوكبري صاحـب حران، وعلى عسكـر حلب والبلاد الشـامية بدر الديـن دلدرم بن ياروق، وعلى عسكـر دمشق وبلادها صـارم الدين قايماز النجمي، فسـاروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحـوا صفـورية، وسـاء صبـاح المنـذريـن، فخـرج إليهم الفـرنـج في حشـدهم فـآتاهـم الله النصر الهنـي، والظفر السنـي، وشفوا منهـم حنين الحنايـا، وأدركوا فيهم منـى المنايـا، وفازوا وظفروا، وقتلـوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فـرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداويـة وله حصـاص، ووقع البـاقون ولم يكـن لهم من الهلاك خـلاص، وعـادوا سالمين سـالبين غانمين غـالبين، فكانـت هذه بـاكورة البركـات، ومقدمة مابعدها من ميامـن الحركات، وجاءتنا البشرى، ونحن في نواحي الكرك والشـوبك، فسار السلطـان ووصل السير بـالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقـول له تعيـش وترى، وقـد غصت بخيـل الله الوهـاد والذرى، وامتد العسكر فراسـخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونـا وسهولا، ومارأيت عسكـرا أبرك منـه ولاأكبر، ولاأكرث للكفـر ولا أكثـر، وكان يـوم عرضـه مـذكـرا بيوم العـرض، ومـا شـاهـده إلا مـن تلا:(ولله جنـود السمـوات والأرض)(٣٧).

وعرض العسكـر في اثني عشر ألف مدجـج في ليل العجاج مـدلج، ولما تم العـرض، حسم الفـرض، وسالـت بأفـلاك السماء والأرض، وتعين الجهـاد، وتبين الاجتهـاد، ثم رتـب السلطـان للعسكـر أطـلابا، وحـزبـه أحـزابا، وسـار يـوم الجمعة سـابـع عشر ربيع الآخـر عـازما على دخـول السـاحل، فـأنـاخ ليلة السبت على خسفين، ثـم سار في الأردن إلى ثغـر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الأ لوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون في النقب في برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)[٣٨] وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)[٣٩] وبتنا والجنة معروضة،والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، ومالغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤلئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأ بت عثرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظماءى ومالهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبى، وفرشتهم على الربى، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومالانوا، وثبتوا على ماكانوا واستقبلوا واستقتلوا واستحلموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطين، حين رأونا بهم محيطين، فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام، ثم استحر الحرب، واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، ولما شاهدوا الصليب سليبا، ورقيب الردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنوا بالضرب الدراك، فما برحوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملون، وللوثوب يخفون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجبر الاسلام بكسرهم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلى قال: ماهناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ماهناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ماأعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامتثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسر، والنجح الأدر، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم مادام

فرسه سالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى مااستبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الحبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الآناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى:(ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)(٤٠).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وماألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عمارات القلوب بقبيح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك،وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولالهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيما، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بها وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدم بداية مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك، وماسلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشيا، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بماء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملك الإبرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الأيدي ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، ومايقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين، فما جرت عادتها بالمفاداة، ولايقلعان عن المعاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لايسمح به، وأنه يضن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبى وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله ومايعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل مالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك. واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك. ولاتحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكل على الله عازما، وجاز الأردن جازما، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشه، ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشترا، فلقيهم السلطان

وأكـرمهم، ثـم عرض السلطـان العساكـر منتصف ربيـع الآخر على تـل يعـرف بتل تسيـل، ورتبهـم وانـدفع قـاصـدا بـلاد العدو في وسـط نهار الجمعة، وكـان أبداً يقصـد بوقعـاته الجمـع لاسيما أوقات صـلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطبـاء على المنابر، فربما كانت أقـرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنـج اجتمعوا في مرج صفـورية بأرض عكـا فقصد نحوهـم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قـرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غـربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظـرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا مـن منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حـالها قبالة وجه العدو، ونازل طبريـة وزحف عليها، فهجمهـا وأخذهـا في سـاعـة من نهار، وامتـدت الأيـدي إليهـا بالنهـب والأسر والحريـق والقتـل، وامتنعـت القلعـة وحـدهـا، فـرحـل الفـرنـج وقصدوا طبريـة للدفع عنهـا، فأخبرت الطلائع الاسـلامية الأمراء بحـركة الفرنـج، فسيروا إلى السلطان من عرفـه ذلك، فترك على طبرية مـن يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معـه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليـل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكـران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمـى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهـم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمـور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمـه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كـان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلـب كل من الفئتين مقامـه، وعلمت كـل طائفة أن المكسـورة منهما مدحـورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمـون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بـلاد القـوم ولاينجيهم إلا الله، وكـان الله قـد قـدر نصر المسلمين فيسره، وأجـراه على وفق مـاقدره، فحملـت الأطـلاب الاسلاميـة من الجوانـب، وحمل القلب وصاحوا صيحـة الرجل الواحد، فألقـى الله الرعب في قلوب الكافرين(وكـان حقا علينا نصر المؤمنين)[٤١]، وكان القمص ذكي القوم

وألمعهم،فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاسبتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال : مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الـذي تسقيه، وإلا أنا مـاسقيته، وكـان على جميـل عادة العـرب وكريـم أخـلاقهـم أن الأسير إذا أكـل أو شرب من مـاء مـن أسره أمـن، فقصـد بـذلك الجري على مكـارم الأخـلاق، ثم أمـر بمسيرهـم إلى موضـع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عـاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعـد الملك في الدهليز واستحضر البرنـس أرناط، وأوقفه على ماقـال، وقال: ها أنا انتصر لمحمـد صلى الله عليه وسلم، ثـم عرض عليه الاسـلام فلم يفعـل، ثم سل النمجـاة وضربه بها فحـل كتفه، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النـار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملـك قـد أخـرج على تلـك الصورة لم يشـك في أنـه يثنـي بـه، فاستحضره وطيـب قلبه، وقال: لم تجر عـادة الملوك أن يقتلوا الملـوك، وأما هذا فـإنه جاوز حـده فجرى ماجـرى، وبات الناس في تلـك الليلة على أتـم سرور، وأكمـل حبور، ترتفع أصـواتهم بالحمد لله والشكـر له والتكبير والتهليـل، حتى طلـع الصبح في يـوم الأحـد، فنزل رحمه الله على طبريـة، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكـر محمد بن القادسي في تـاريخه أنه ورد في هذه السنـة كتب إلى بغـداد في وصـف هـذه الـوقعة، منهـا كتـاب مـن عبـد الله بـن أحمد المقدسي يقول فيـه:« كتبت هذا الكتاب مـن عسقلان يوم الثلاثـاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»وفيـه :«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التـي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الـدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمـع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليـوم الذي كنـت أنتظره، وقـد جمع الله لنا العسـاكر، وأنـا رجل قـد كبرت، ومأدري متـى أجلي، فاغتنمـوا هذا اليـوم وقاتلـوا لله تعالى لامـن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكـان رأي أكثرهم لقاء الكفـار، فعرض جنده ورتبهم وجعـل تقي الدين في الميمنـة ومظفر الدين في الميسرة، وكـان هو في القلـب، وجعل بقيـة العسكـر في الجناحين، ثـم سـاروا على مراتبهـم

حتى نزلـوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقـالهم، وساروا حتى نزلـوا بكفر سبت فـأقـاموا يـومين ينتظـرون أن يبرز لهم الكفـار، وكان عسكـر الكفـار على صفـورية، فلـم يبرزوا فعاد صـلاح الديـن حتى نـزل على طبرية، فتقـدم فرسانـه وحماته ورماته والنقـابون فدخلوا تحت الحصـن، فلما تمكن النقب منـه انهال من غير وقـود نـار، ودخل المسلمـون فـانتهبـوا يوم الخميـس، وأصبحوا يـوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعـة فلما كان وقت الصـلاةجاء الخبر أن الكفـار قد تـوجهـوا إلينا، فـارتحل صلاح الـديـن على صفوفـه فلقيهم، ثـم لم يزالـوا يتقدمون حتـى صار المسلمـون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسـار الكفار يقصدون طبريـة والمسلمون حولهم يلحـون عليهم بالـرمي، فـاقتلع المسلمـون منه فـوارس، وقتلوا خيـالة ورجـالة، فـانحاز المشركون إلى تـل حطين فنزلـوا عنده ونصبوا الخيـام، وأقام النـاس حولهم إلى أن انتصف النهـار، وهبت الـرياح فهجم المسلمـون عليهم، فـانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلـت منهم إلا نحو مـن مائتين، وكانـوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفـا، وقيل ثـلاثة وعشريـن ألفا، لم يتركـوا في بلادهـم من يقدر على القتـال إلا قليلا، وكان الـذي أسر الملك هو دربـاس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنـس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنـه كان قـد غدر، وأخـذ قافلـة من طـريق مصر، ثـم عاد صـلاح الدين إلى طبرية فـأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعنـاق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التـي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصـف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الـذي يبشر به المسلمـون:« إن مدينـة طبريـة فتحت بـالسيف وأخـذت قلعتها بـالأمان، واجتمع عسكر الأفـرنج جميعهم والتقوا بـالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر:« وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وماكاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت
ثغور بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملـــوك الكفـــر حتـــى تـــركتــــه
ومــافيـــه عـــرق عـــن قـــوى النفـــس ينبــض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: « ليهـن المولى إن الله قد أقام به الـدين القيم، وإنـه كما قيل أصبحت مولاي ومـولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليـه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيـا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والـرؤوس إلى الآن لم ترفع مـن سجودهـا، والدموع، لم تمسـح من خدودها، وكلما فكـر الخادم أن البيع تعود وهي مساجـد، والمكان الذي كان يقـال فيه إن الله ثالـث ثلاثة يقـال اليوم فيـه: إنه الواحـد، جدد لله شكرا تارة يفيـض من لسانه، وتـارة يفيض من جفنه، وجـزا يوسف خيرا عن إخـراجه من سجنه، والمماليـك ينتظرون أمر المولى، فكـل من أراد أن يدخـل الحمام بدمشـق قد عـول على دخول حمام طبريـة: « تلك المكـارم لاقعبان مـن لبن» وذلـك الفتح لاعمان واليمـن، وذلك السيـف لاسيف ابن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يـذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نـابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يـــا يـــوم حطين والأبطـــال عـــابســـة
وبـــالعجـــاجـــة وجـــه الشمـــس قـــد عبســـا
رأيـــت فيـــه عظيـــم الكفـــر محتقـــرا
معفـــرا خـــده والأنـــف قـــد تعـــس
يـــاظهـــر سيـــف بـــرى رأس البرنـــس فقـــد
أصـــاب أعظـــم مـــن بـــالشرك قـــد نجســـا
وغـــاص إذ طـــار ذاك الـــرأس في دمـــه
كـــأنـــه ضفـــدع في الماء قـــد غطســـا

مــازال يعطــس مــزكــومــا بغــدرتــه
والقتــل تشميــت مــن بـالغــدر قــد عطســا
عــرى ظبــاه مــن الأغماد مهــرقــة
دمــا مــن الشرك رد إهــابــه وكســا
مــن سيفــه في دمــاء القــوم منغمــس
مـن كـل مـن لـم يـزل فـي الكفـر منغمسـا
أفنــاهــم قتلهــم والأسر فــانتكســوا
وبيــت كفــرهــم مــن خبثهــم كنســا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبــت على الأردن ردنــا مــن القنــا
ردينيــة ملــدا وخطيــة ملســا
حططــت على حطين قــدر ملــوكهــم
ولم تبــق مــن أجنــاس كفــرهــم جنســا
ونعــم مجال الخيــل حطين لم تكــن
معــاركهــا للجــرد ضرســا ولا دهســا
غــداة أســود الحرب تعتقــل القنــا
أســاود تبغــي مــن نحــور العــدا نهســا
أتــوا شكــس الأخــلاق خشنــا فلينــت حــ
ــدود الـرقــاق الخشــن أخــلاقهــا الشكســا
طــردتهم في الملتقــى وعكستهــم
مجيــدا بحكــم العــزم طــردك والعكســا
فكيــف مكســت المشركين رؤوسهــم
ودأبــك في الإحســان أن تطلــق المكســا
كسرتهم إذ صــح عــزمــك فيهــم
ونكستهــم إذ صــار سهمهــم نكســا
بــواقعــة رجــت بها الأرض جيشهــم
دمــاراكما بســت جبــالهم بســا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضي فراشهم
صلالا فزادت من خمودهم قبسا
وقد خشعت أصوات أبطالها فما
يعي السمع إلا من صليل الظبي همسا
تقاد بدأماء الدماء ملوكهم
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها
وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يبسا رأس البرنس الذي به
تندى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماض الغرار لغدره
وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله مما أهدى يد افتكت به
وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة
فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوغ في أوداجه دم بغيه
فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها
أمامهم أرناطها ذلك الجبسا
ولله نص النصر جاء لنصله
فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداوي صل بضربة
طرير الشبا عودا بمضرابه حسا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل
وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها ريا و يا حسنها مرسى

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمر

أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر

فهناك لم ير غير نجم مقبل
في أثر عفريت رجيم مدبر

فمن الذي من جيشهم لم يخترم
ومن الذي من جمعهم لم يؤسر

حتى لقد بيعت عقائل أرهقت
بالسبي بالثمن الأخس الأحقر

سقت المماليك الكرام ملوكهم
كأسا به سقت اللئيم المنفري

وعجمت عود صليبهم فكسرته
وسواك ألفاه صليب المكسر

أغلى الأداهم من أسرت وأرخصت
بيض الصوارم من نهاب العسكر

وجعلت شرق الأرض يحسد غربها
بك فهو داع دعوة المستنصر

لا يعد منك المسلمون فكم يدا
أوليتهم معروفها لم تنكر

آمنت سربهم وصنت حريمهم
ودرأت عنهم قاصمات الأظهر

ما أن رآك الله إلا آمرا
فيهم بمعروف ومنكر منكر

متـــــواضعـــــا لله جـــــل جـــــلالـــــه
وبـــك اضمحلـــت سطـــوة المتكبر
لم يخل سمـــع مـــن هنـــاء مهنـــيء
للمسلمين ومـــن سماع مبشر
واستعظـــم الأخبـــار عنـــك معـــاشر
فـــاستصغـــروا مـــا استعظمـــوا بـــالمخبر
مضـــت الملـــوك ولم تنـــل عشر الـــذي
أوتيتـــه مـــن منجـــح أو مفخـــر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية:

جلـــت عـــزمـــاتـــك الفتـــح المبينـــا
فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا
رددت أخيـــذة الاســـلام لما
غـــدا صرف القضـــاء بها ضمينـــا
وهـــان بـــك الصليـــب وكـــان قـــدمـــا
يعـــز على العـــوالي أن يهونـــا
يقـــاتـــل كـــل ذي ملـــك ريـــاء
وأنـــت تقـــاتـــل الأعـــداء دينـــا
غـــدت في وجنـــة الأيـــام خـــالا
وفي جيـــد العـــلا عقـــدا ثمينـــا
فيـــا اللـــه كـــم ســـرت قلـــوبـــا
ويـــا لله كـــم أبكـــت عيـــونـــا
ومـــا طبريـــة إلا هـــدي
تـــرفـــع عـــن أكـــف اللامسينـــا
حصـــان الـــذيـــل لم تقـــذف بســـوء
وســـل عنهـــا الليـــالي والسنينـــا
فضضـــت ختـــامهـــا قسرا ومـــن ذا
يصـــد الليـــث أن يلـــج العـــرينـــا

لقد أنكحتها صم العوالي
فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الأرض طرا
سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت
وغاية كل قاس ان يلينا
قضيت فريضة الاسلام منها
وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا
وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجماد يطيق نطقا
لنادتك أدخلوها آمنينا
جعلت صباح أهلها ظلاما
وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء
لموضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء
لذيذ علم الطير الحنينا

تميل إلى المثقفة العوالي
فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا
بروق القاضبات لما دهينا
فكم حازت قدود قناك منها
قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات
كغيد نداك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى
بنان تفضح الغيث الهتونا

أعــــدت بها الليـــالي وهـــي بيـــض
وقـــد كـــانـــت بها الأيـــام جـــونـــا

فليـــس بعـــادم مـــرعـــى خصيبـــا
أخـــو سغـــب ولا مـــاء معينـــا

فـــلا عـــدم الشـــآم وســـاكنـــوه
ظبـــى تشفـــي بها الـــداء الـــدفينـــا

سهـــاد جفـــونها في كـــل فتـــح
سهـــاد يمنـــح الغمـــض الجفـــونـــا

فـــالمم بـــالســـواحـــل فهـــي صـــور
إليـــك وألحق الهام المتـــونـــا

فقلـــب القـــدس مسرور ولـــولا
سطـــاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا

أدرت على الفـــرنـــج وقـــد تـــلاقـــت
جموعهـــم عليـــك رحـــى طحـــونـــا

ففـــي بيســـان ذاقـــوا منـــك بـــؤســـا
وفي صفـــد أتـــوك مصفـــدينـــا

لقـــد جـــاءتهم الأحـــداث جمعـــا
كـــأن صروفهـــا كـــانـــت كمينـــا

وخـــانهم الـــزمـــان ولا مـــلام
فلســـت بمبغـــض زمنـــا خـــؤونـــا

لقـــد جـــردت عـــزمـــا نـــاصريـــا
يحدث عـــن سنـــاه طـــور سنيـــا

فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق حقـــا
لـــه هـــوت الكـــواكـــب ســـاجـــدينـــا

لقـــد أتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي
وحـــاول أن يســـوس المسلمينـــا

وأن تـــك آخـــراً وخـــلاك ذم
فـــإن محمـــداً في الآخـــرينـــا

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لاأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة،ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمـان نهابها، فطـاب لأولئـك نهابها، وجعـل السلطـان للفقيـه عيسـى الهكاري كل مـاكان للداوية من منـازل وضياع ومواضع ورباع، فـأخذها بما فيها مـن غلال ومتـاع، واستخرجـوا الدفـائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكـذلك مماليك الملك الأفضـل وأصحابه، وولاته ونـوابه نبشوا المحـارز، وفتشـوا المراكز، واستبـاحـوا الإهـراء واجتـاحوا الأشيـاء، وكـان السلطـان قد فـوض عكـا وضياعهـا ومعاقلهـا وقـلاعها إلى ولـده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنـواع مااستولوا عليـه من الأموال، ثم قـال: ومن جملة ذلـك أنهم احتاطـوا بغير علمـي على دار بـاسمي، فبـاعـوا منهـا متاعـا بسبعمائة دينـار، وأخلـوها ممـا كـان فيهـاآلات وأذخار، وقلـدوني المنـة في تحصيل تلـك الدار، فـإنها كانت مـن أنفس العقـار، وسلموهـا إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والـذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفـع من آلاتها بعـد خلوهـا بما قيمته سبعـون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنمـوه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فـأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح:وخلى سكان البلـد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركـوها لمن أخـذها، ونبـذوا ماحـووه لمن حواهـا ومانبـذها، وافتقـر من الفرنج أغنيـاء، واستغنى من أجنادنـا فقراء، ولو ذخرت تلـك الحواصل، وحصلـت تلك الـذخائر، وجمع لبيـت المال ذلك المال المجمـوع الوافـر، لكان عـدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجـح المقاصد، فرتعـت في خضرائها، بل في صفـرائها وبيضـائها سروح الأطماع، وطـال لمستحلبها ومستحيلهـا الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة،يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين:« صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا)[٤٢] وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكـا والاسلام قد اتسـع مجاله، وتصرف أنصـاره ورجاله والكفـر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومـن جملة البشائر بكسرة حطين:« ولما أحيط بـالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمـه من العوم، فأسمعه السيف(لاعـاصم اليوم)[٤٣] واستـولى الخذلان عليهـم بـأسرهـم،وبـردت أيـدي المؤمنين بحـر قتلهـم وأسرهم، ولم يبق لهم بـاقية، وغصت بقتلاهـم في الـدنيا والآخرة أرض الله الـواسعة، ونـار الله الحامية، فما يطـأ من يصـل إلى مخيمنا إلا على رممهـم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقـدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلـوب، ولابد أن ندركـه فهو مطلوب، وقـد كنا نذرنـا ضرب رقبة الإبرنـس صاحب الكـرك الغدار، كافـر الكفار، ونشيدة النـار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا، وسرنا إلى عكا وهـي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركـز دائرة كفرهـم، ومجمع جمع بـرهم وبحـرهم، فتسلمنـاها بـالأمان، والصخـرة المقدسـة الآن بنا تصرخ وتستغيـث، وعبـاد الله الصالحون قـد وصلـت إليهـم بـوعـد الله الصادق المواريـث، والبشـارة بفتـح القـدس لاتتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتـم الصـالحات بحمـده(مـا يفتح الله للنـاس مـن رحمة فـلا ممسـك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده)[٤٤]».

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا و طبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعا ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملىء بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ماطبت نفسا ولااستحسنت بعدكم
شيئا نفيسا ولااستعذبت لي نفسا
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيف يصبح أو يمسي محبكم
وشوقكم يتولاه صباح مسا
عادت معاهدكم بالجزع دارسة
وإن معهدكم في القلب مادرسا
وكنت أحدس منكم كل داهية
ومادهانا من الهجران ماحدسا
لما هدت نار شوقي ضيف طيفكم
قريته بالكرى زار مقتبسا
ورمت تأنيسه حتى وهبت له
إنسان عيني أفديه فما أنسا
أنا الخيال نحولا فالخيال إذا
مازارني كيف يلقى من به التبسا
لهفي على زمن قضيته طربا
إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
عسى يعود شبابي ناضرا ومتى
أرجو نضارة عود للشباب عسا
وسادن يفرس الآساد ناظره
فديته شادنا للأسد مفترسا
في العطف لين وفي أخلاقه شوس
يالين عطفيه جنب خلقه الشوسا

ومنها في المديح:

إن بان لبس مضينا لاجئين إلى الـ
ـفتى الحسام بن لاجين بنابلسا
يميت أعداءه بأسا ونائله
يحيي رجاء الذي من نجحه أيسا
ممزق المازق المنسوج عثيره
وقد محا اليوم ليل النقع فانطمسا

لازلــت مستـــويـــا فـــوق الحصــــان وفي
حصـــن الحفـــاظ ومــــن عـــاداك منتكســـا

وهي طويلـة وقد تقدمت منها أبيـات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيـات عند فتح القدس في مدح السلطان صـلاح الدين رحمه الله.

ومـن كتاب عـن السلطـان إلى سيـف الاسلام أخيـه:« كـاتبنـا أخانـا العادل أن يـدخل بـالعساكر المصريـة من ذلـك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية،كان قـد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قـدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحهـا عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبـت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البـلاد المعينة بعد وهي:

طبريـة. عكا. الـزيـب. معليا. اسكنـدرونـة. تبنين. هونين. النـاصرة. الطـور. صفـوريـة. الفـولة. جينين. زرعين. دبـوريـة. عفـربـلا. بيسـان. سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يـافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. صرفند. صيـدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يـابا. جبل الجليل. مجدل حباب. الـداروم. غزة. عسقلان. تل الصـافية. التل الأحمر. الأطـرون. بيت جبريـل. جبـل الخليـل. بيت لحم. لـد. الـرملـة. قرتيـا. القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكـر ماتخللها من القرى والضياع والأبـراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكـل واحدة من هذه البلاد التي ذكـرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قـال العماد: وممـا أنشأتـه مـن شرح الفتـوح وكتبـت به إلى الـديـوان

وبدأت بقـوله تعـالى:«﴿ولقـد كتبنـا في الزبـور من بعـد الذكـر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾(٤٥) الحمد لله على ماأنجز مـن هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحـدث الله بعد ذلـك أمرا، وهـون الأمر الـذي ماكـان الاسلام يستطيـع عليه صبرا، وخـوطب الـدين بقولـه:﴿ ولقد مننـا عليك مـرة أخرى﴾(٤٦) فالأولى في عصر النبـي صلى الله عليه وسلـم والصحابـة، والأخرى هـذه التي عتـق فيها مـن رق الكآبة، فهـو قد أصبـح حرا، ريـان الكبد الحرا، والزمـان كهيئته استـدار، والحق ببهجته قـد استنار، والكفـر قد رد مـاكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعـاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جـذيذا حبلـه، مبيضا نصره، مخضرا نصلـه، متسعا فضلـه، مجتمعا شملـه، والخادم يشرح مـن نبـأ هـذا الفتـح العظيـم، والنصر الكـريـم، مايشرح صـدور المؤمنين، ويمنح الحبـور لكافـة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به مـن يوم الخميس الثالـث والعشرين من شهر ربيـع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانيـة أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخـل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خـالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كـانت مـن الكفر بـاكية، فيـوم الخميس الأول فتحـت طبرية، ويـوم الجمعة والسبـت نوزل الفرنـج فكسروا الكسرة التي مـالهم بعدها قـائمة، وأخذ الله أعداءه بـأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظـالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهـر فتحت عكـا بالأمـان، ورفعت بها أعـلام الإيمان، وهي أم البـلاد، وأخـت إرم ذات العماد، وقـد أصـدر هــذه المطـالعـة وصليـب الصلبـوت مأسـور، وقلب ملـك الكفر الأسير بجيشـه المكسور مكسـور، والحديد الكـافر الذي كـان في يد الكفـر يضرب وجه الاسلام، قـد صار حـديـدا مسلما يعـوق خطـوات الكفر عـن الإقـدام، وأنصـار الصليـب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والـدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فـلا تقبل فيه القناطير المقنطـرة من الذهب والفضـة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي:طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، ومايتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدهـا، وبادرهـا اشفاقا مـن مكر العداة وكيـدها، ووصلنـا في يومين إلى صيـدا إلى منهـل فتحها صـاديـن، وعـن حمى الحق دونها لأهل البـاطـل صاديـن، ولما نزلنا مـن الوعر إلى السهـل سهل ماتـوعر، وصفا مـن الأمر مـاظن أنـه تكـدر، فصرفنـا الأعنة إلى صرفنـد، وهـي مـدينة لطيفـة على السـاحـل، مـورودة المنـاهل، ذات بسـاتين وأشجـار وريـاحين وأزهـار، فأخـذناهـا، وخيمنا على صيـدا وقد جـاءت رسل صـاحبها بمفـاتيحها، وطلعـت الـراية الصفـراء على سـورهـا وأقيمـت بها الجمعـة والجماعـة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثـم سـار في يـومـه على سمــت بيروت، فنـزل عليهـا يـوم الخميـس، وضايقهـا وحاصرهـا ثمانية أيـام، ثم طلبـوا الأمان فـأمنهم وتسلمهـا يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فـأملى كتاب صلـح بيروت، ورجع إلى دمشـق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قـال: وسلمـت بيروت بحضـوري، فكـان مـن سبـب ابـلالي سروري بفتحها وحبـوري، وخرج منهـا ومن قلعتها الفـرنج وامتـلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسـلام الغريب فيها إلى وطنـه، وتوطن الديـن بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صـاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملـك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل لـه فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابـض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتـح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوهـا ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فـأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقالـه، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيـده، فوصل به ونحن على بيروت فسلـم جبيل وسلـم وربح نجاتـه وغنم، ومضـى إليها من تـولاها، وانسـل منها صاحبهـا وسلاها، وتبعهـا فتح بيروت وتـلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فما متع بها ملك وكان كما قيل:« راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا،ثم تعجب وقال: مانرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكـان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الـرملـة، وتبنين، وبيـت لحم، والخليـل، وأقـام بها حتـى تسلـم حصـون الداويـة: غزة والنطرون، وبيـت جبريل، وكـان قد استصحب معـه مقدم الداوية، وشرط معـه أنه متى سلم معـاقلهم أطلقه، فسلم هـذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كـذا قـال العماد في كتـاب الفتـح، وقـال في كتـاب البرق: ومـابـرح السلطان مقيما بظـاهر عسقلان حتى تسلـم المعاقل المجـاورة لها، والبلاد المتخللـة فيما بينهـا، فـذكـر الداروم، وغـزة والـرملـة وتبنين، وبيـت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابـن شداد: لما فـرغ بال السلطـان من هـذا الجانب يعنـي ناحيـة بيروت رأى قصـد عسقلان، ولم يـر الإشتغال بصـور بعـد أن نزل عليهـا ومـارسها، لأن العسكـر كان قـد تفرق في السـاحل، وذهـب كل انسـان يأخـذ لنفسه شيئـا، وكانـوا قد ضرسـوا من القتـال، ومن مـلازمة الحرب والنـزال، وكان قـد اجتمع في صـور — يسر الله فتحها— كـل فرنجـي بقي في السـاحل فـرأى قصد عسقـلان لأن أمرهـا كان أيسر، وتسلـم في طريقه مواضـع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقـام عليها المنجنيقات وقاتلهـا قتالا شديدا، وتسلمهـا سلخ جمادى الآخرة، وأقـام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قـال: وكان بين فتـح عسقلان وأخـذ الفـرنج لها مـن المسلمين خمس وثلاثـون سنة، فإن العدو ملكهـا في السابع والعشرين مـن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبـه السلطان إلى بعض أهله وفيه:« انتقلنـا إلى الجانب الـذي فيـه القدس، وعسقـلان ففتحنـا قـلاعه كلهـا

وحصونه جميعها ومعـاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهـي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويـافا، والـرملة، ولـد، وتل الصـافية، وبيـت جبريل، والـدير، والخليل، ونازلنـا عسقلان، وهي المعقل المنيـع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهـم من القوة والعدة والعـدد ماتتقاصر الآمال عـن نيل مثله، فافتتحنـاها سلما لتمام أربعـة عشر يومـا من يـوم نزولنـا عليها، ونصبـت أعلام التـوحيد على أبراجهـا وأسوارهـا، وعمرت بالمسلمين، وخلـت من مشركيهـا وكفارهـا، وكبر المؤذنون في أقطـارهـا، ولم يبق في السـاحل مـن جبيـل إلى أوائل حدود مصر سـوى القدس، وصـور، والعزم مصممـم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فـإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكـر بعضه قال:« وقد تفرق العسكر، وتـوجه قوم إلى القـدس وابن زيـن الـدين وتقـي الديـن نـازلان على صور، وفتحـت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف وإسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر:« ونـزلوا على صور وكاتبهم ملك بيـت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنـا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تـدخل بيت المقدس وتـذهب عين واحـدة منك، فقـال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال:« ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صـور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفـوض السلطان القضاء والحكـم والخطابة وجميـع الأمور الدينيـة بمدينـة عسقلان وأعمالها إلى جمال الـدين أبي محمـد عبد الله بـن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام:« من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهـذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير،وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفـا، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتـح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقـال: رحل السلطان من عسقـلان للقدس طالبا، وبـالعزم غالبا، وللنصر مصاحبـا ولذيل العز ساحبا، والاسـلام يخطب من القدس عـروساً، ويبـذل لها في المهـر نفوسـاً، ويحمل إليهـا نعمـى ليحمل عنهـا بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوسـاً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائهـا على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبيـة ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعـادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكـونه وسكنـه،وإقصـاء أعداء الـذيـن أقصاهـم الله تعـالى بلعنته مـن الأقصـى، وجذب قيـاد فتحه الـذي استعصـى، واسكات النـاقوس منـه بانطاق الأذان، وكـف كف الكفرعنه بـأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلـك الاجناس، وأدنـاس أدنى النـاس، وطـار الخبر إلى القدس فطـارت قلوب من به رعبـا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفـاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنـت الفرنج لما شاعت الأخبـار أنها ماعاشت، وكـان به من مقدّمي الفرنج باليان بـن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطـرك الأعظم وهـو الثاني العظيـم الشان، والـذين أعظمتهـم حياطـة حطين به مـن الفرسـان الداوية والاسبتـاربة و البـارونية مـن ذوي الكفر والشنـآن، وقد حشروا وحشـدوا، ونشروا ونشـدوا، وحميـت حميتهم وأبـت الضيم أبيتهم، وحـارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقـاموا وقعدوا، وصوّبوا وصعدوا، فاشتغـل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطـر البطرك، وضـاقت بـالقوم منـازلهم، فكانـت كل دار منهـا شركا للمشرك، وقامـوا للتدبير في مقام الإدبـار، وتقسمت أفكار الكفـار، وايس الفرنج من الفـرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هـاهنا نطرح الرؤوس، ونسلـو النفـوس، ونسفـك الدمـاء، ونهلـك الـدهماء، ونصبر على اقتراح القـروح، واجتراح الجروح، ونسمح بـالأرواح شحـا بمحـل الروح، فهـذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحرّم، والصور والاشكال، والانظار والأمثال،والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم والراهبين في صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم،وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت،وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع ولاننازل،ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا مااستخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، ومانتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقـا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كـل طارق بـالردى للـرّد طريقـا، وأعادوا كـل نهج واسع بها وعروه وعوروّه بـه مضيقا، وتحمل كل منهـم مالم يكن له مـن قبل مطيقا، وخـرج جماعة منهـم على سبيل اليـزك فـأدلجوا ليلا، واعترضـوا عدّة مـن أصحـابنا غـارة، على طريـق السلامـة مـاره، وكان قـد شذ مـن المقدمـة المنصورة أمير تقـدم، وماتحرز، ولاتحزم، ومـاظن أن قـدامه مـن له جـراءة الإقـدام، ومن يعتقـد أن ربـح كفـره خسارة الاسـلام، وهـوالأمير جمال الدين شروين حسـن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضـع يعرف بالقبيبات، فاستشهـد رحمه الله، ولما بلغ السلطـان خبره ساءه وغمه ثـم أقبل بـاقبال سلطـانه وأبطـال شجعـانـه، واقيال أولاده، وأخـوانـه، وأشبـال مماليكـه وغلمانه، وكرام أمـرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصـى وطريقة الأدنـى، وفريقـه الأسنـى، ويذكـر مـايفتح الله عليـه بحسـن فتحه مـن الحسنـى، وقال إن أسعـدنا الله على إخـراج أعدائه مـن بيته المقـدس فما أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابـد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القـرون عنه متخليه، وخلت الفرنج بـه متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحـه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بـالقبول القلـوب، كيف لايهتـم بفتح البيـت الأقوى، والمسجـد الأقصـى المؤسس على ا لتقـوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأوليـاء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينـت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كـالتاج، وفيه ومض البارق، ومضـى البراق، وأضـاءت ليلـة الاسراء بحلـول السراج المنير في الآفـاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى الجنـة بالـدخول إلى الخلـود، وفيـه كـرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلـوان التـي تمثـل لـواردهـا مـن الكـوثـر الحوض المورود، وهـو أوّل القبلتين،وثـاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(٤٧) وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب)(٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله:(الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نـزل السلطان على غربي القـدس يوم الأحد خـامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنـج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسـائف ونابـل، فاستهدفـوا للسهام، واستـوقفوا للحمام، وقـالوا كل واحـد منا بعشريـن، وكل عشرة بمئتين، ودون القمامـة تقوم القيـامة، وبحب سـلامتها تقلى السـلامة، وأقـام السلطان خمسـة أيام يـدور حول البلـد، ويقسم على حصـاره أهل الجلـد، وأبصر في شماليـه أرضاً رضيهـا للحصار، متسعة المجـال للاسماع والابصار، وممكنة للدنـو منه للنقب إن صار مـن حيز الانصـار، فانتقل إلى المنـزل الشمالي يوم الجمعـة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبـت إلاّ على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسـانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمـام جموعهـم المحسـورة المحشـورة، ويبرزون ويبـارزون،ويطـاعنـون ويحاجزون ، والمطيعـون لله عليهم يحملون، ومـن دمائهم ينهلـون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم(يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)[٤٩] وممن استشهد مبارزا ولم يشهـد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الـدين عيسى ابن مـالك كان أبـوه صاحب قلعة جعبر، فـانه حاز لشهـادته في المحشر المفخـر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكـوثـر، وكـان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهـه وجوه المنون العوابس ، فاغتـم المسلمون من صرعته، وهـان عليهم اتـلاف المهج بعـد اتلاف مهجتـه، فركبـوا أكتاف الرهج، حتى وصلـوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفـرقوه، والتصقوا بـالسور فنقبـوه وعلقـوه وحشـوه وأحرقـوه، وصـدقـوا وعد الله في القتـال لأعـدائه وصـدقـوه ، ولما عضتهـم الحرب، وقـع السـور واتسـع النقـب، فصعب عليهم الهين وهـان لنا الصعب، وعقدوا مابينهـم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلاّ الإستئمان ، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ،وقال: لاآخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلاّ الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولانلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح عشره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبه، ونترك عليكم في سبينا السبه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوان نعميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نعطبها ولانعطيها، وإما الذراري فإنا نسارع إلى اعدامها ولانستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولايقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعماره، ولانضار ولانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه أو امتنع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو: عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغيرة أوصغير ديناران، الذكر والأنثى فيهما سيان، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير ، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكن تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفيا في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته، فخرج مخفيا بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد، والنقاب الأكابر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الدين كوكبري أن منهم جماعة من أرمن الرها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادّعى بها لعدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقوّم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سماحة

الابتهاج، ومـا فينا من فـاز بأوفى نصيب، ورعـى منه في مرعـى خصيب، وكان السلطان قد رتـب عدّة دواوين في كل ديوان منها عـدّة من النواب المصريين،وفيهم من الشاميين، فمن أخذ مـن أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلـق مـع الطلقاء، بعـد عـرض خطـه على مـن بـالباب مـن الأمنـاء والـوكلاء، فـذكر لي مـن لاأشك في مقـالـه أنه كـان يحضر في الديـوان ويطلـع على حالـه، فربما كتبـوا خطـا لمن نقده في كيسهـم، وتلبس أمـر تلبيسهم ، فكانـوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وخانوه على مـاحصل لكل من الغنى والنفـع وماأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيـت المال مايقارب مـائة أ لـف دينار، وبقـي مـن بقـي تحت رق إسار ينتظـر انقضـاء المدّة المضروبه، والعجز عـن الوفاء بالقطيعة المطلـوبة، وكانت بـالقدس ملكة رومية متعبـدة مترهبة في عبادة الصليـب متصلبه، وعلى مصـابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفـاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات مـن المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشيـاء وأشياع وأتباع، فـاستعاذت بالسلطـان فأعاذها، ومـنّ عليها وعلى كل مـن معها بالافراج، وأذن في اخـراج كل مالها في الأكياس والأخـراج، وأبقى عليها مـن مصوغـات صلبانها الـذهبية المجـوهرة ونفـائسها وكـرائم خزائنهـا، فخـرجت بجميـع مالها وحـالها، ونسائهـا ورجالها، واسفـاطها وأعـدالها، والصناديق بأقفـالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فـراحت فرحى، وإن كانـت من سجنهـا قرحـى، وكذلك خـرجت زوجـة الملك المأسـور كى، وهـى ابنة الملك امـارى، وكـانت مقيمـة في جوار القـدس مـع مالها مـن الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نـابلس، موكـلاً به ليوم وعـد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هـي ومن تبعها، وأقـامت عنـد زوجها، وكذلـك خرجت الابـرنسة أم هنفـري وهي ابنة فليـب وزوجة الابـرنس الذي سفـك دمه يـوم حطين، وهي صـاحبة الكرك والشـوبك، وهي بنـوّابها محوطة وبرأيها منـوطه، فجاءت سـائلة في ولدهـا العاني، فـوعدت أنها إن سمحـت بحصنها سمـح لها بابنهـا، ثم

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم،ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء،والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي:(شرع لكم من الدين ماوصى)[٥٠]وهنئي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرّبوا بها .ويشرّقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عـز يومه مـاحياً ذل أمـس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعـد الجهال والضلال مـن البطرك والقس، وعبـدة الصليب، ومستقبلي الشمـس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظـالمين والحمد لله رب العالمين، فكـأن الله شرف هذه الامـة وقال لهم: اعزمـوا على اقتناء هذه الفضيلـة التي بها فضلكم وحقـق في حقهم امتثـال أمره في قـولـه الكريـم:(ادخلوا الارض المقـدّسـة التي كتـب الله لكم)(٥٢)وهذا الفتـح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكتـه المسوّمـة له مـن أعز الانصـار وأظهر الاعـوان، واخرج مـن بيته المقدس يوم الجمعة أهـل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثـالث ثلاثة بمن يقـول: هو الله أحـد، وأعان الله بـانزال الملائكـة والروح، وأتـى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتـح الفتوح، وقـد تعالى أن يحيـط به وصـف البليغ نظماً ونثراً، وعبد الله في البيـت المقدّس سراً وجهـراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجددّ للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استبـاحة أموالهم وأرواحهم، وحسـم داء اجتراحهم باجتياحهـم، وانه لابد من تطهير الأرض المقـدّسة برجس دمـائهم، وقتل رجـالهم وسبي ذراريهم ونسـائهم، ولما أيسـوا من النجـاة، وفتحوا أبـوابها المرتجة من أسبـابها المرتجاه، خوّفـوا بقتل الأسـاري المسلمين، وهم أكثـر من ثـلاثة آلاف، وأنهم يفسـدون جميع مـا في البلد مـن مال وبنـاء بهدم واحراق واتـلاف، وعرف ان جهلهم يحملهـم على كل مكـر شنيع، وأنهم تدعـوهم فظـاظتهم إلى كل أمـر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفـداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمـر أنهم يفادون، وأجيبت الصخـرة المقدّسة عنـد استصراخها، وبركت البركة النـاهضة اليها في مناخها، وغسلت مـن أوضارها وأوزارها بعبرات العيـون، ورجع اضطـرابها إلى السكـون، وفديـت بنـواظر أهـل

الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلاّ صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة».

ومن كتاب آخر:« فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمنّ الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرّت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الـوهاج، والحمـد لله على سلوك مـاوضح مـن المنهاج، ونضـوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنـا، وهو فتح بيـت الله المقدس الـذي غلق رهنه دهـراً، واغتصب من الاسلام قهـراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمـراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحـه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتـداحه، ونزلوا بالـرغم على التماس الكفـر واقتراحه، واحتملـوا لحفظ مـواضعهم نكـاية اجتراحه، فـلا جرم أعـده الله لأيامنا وذخـره لمواسم اعتـزامنا، وفتحـه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايثاراً لما نحن نـؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنـا الصخرة، وأهـدينا إليها النصرة، ومكنـا من قلبهـا— وإن كان من الحجر— المسرة.

تسلمنا القدس يـوم الجمعة السابع والعشرين من رجـب، وقضينا من حـق هـذا البيت مـاوجـب، وجـاء القـدس إلى القدس، وزال الـرجـس وذهب، وتولى فيـه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجـر وفخم الفخر، وطـاب النشر، وزاد البشر، ومحي الـرجـس، وثبـت الطهـر، وهلـك المشرك وذل البطـرك، وأقصي من المسجـد الاقصى السـاجد إلى الشمـس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهـارته، ونطق منه لسان التقديـس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القـدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقـد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدنـاه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سنـاه، من فتحه وهنـاه، وعلموا أنهم هـالكـون، وأنـا لهم بـالقهـر مـالكـون، وفي سبيـل القتـل والاسر والسبـي سالكـون، فخـرجوا يطلبـون الأمان ، ويبـذلـون الاذعان،حتـى يسلمـوا المكان، فقيـل لهم: الآن وقد عصيتـم ورضيتم بما فيـه هلاككـم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسـارى المسلمين، وهـم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهـم معروف، فتضرعـوا وتشفعوا وتعفـروا في تراب الـذل وتـوقعوا، وتقـرر عليهـم مال اشتروا بـه أنفسهم، فنـزعـوا به مـن الخوف ملبسهم، وسلمـوا القدس، فأعـدناه إلى القدس، وطهـرناه من ا لـرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتـح بيـت الله المقدّس الـذي غلـق رهنـه، وطال في يـد الكفـر أسره وسجنه، واستهـل بغرّ أيـامنا مـزنه، وأنار يمنـه، وعاد بـاحساننـا حسنه، وزال بنا خـوفه وزاد أمنه، وبقـي قريب مائة سنـة في يد الكفر مسجـونا وبرجـس الشرك مشحونا، حتى أعـاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقـه، وأعدم فرقه.

وهذا فتـح لم يكن منـذ عصر الصحابـة رضي الله عنهم لـه نظير، وأفق الدين بـه منيف منير، وشرف أيامنا بـه كثير، وهو إمام فتوحنـا المدّخرة لنا وماها بتأييد الله تأخير.

فتـح البيت المقـدس الذي لم يخطـر تمنيه بخـاطر الملـوك، وتوعـر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونـه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيـه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعـانا الله لفتحه فـأجبناه، ووعـدنا بـالفوز فـأصبناه، وأوردنـا مشرع صفائه فـاستعذبنـاه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قـد أنزلت الأسواء بالاسـوار، وغارت الصخور للصخرة المبـاركة فجدّت في انقـاذها من الاسـار، وهتمت ثنايـا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامـت المنجنيقات على عصـابته حـد الرجـم، وواقعت ثنـايا شرفـاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدّسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، فما أسرّ البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر، واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعزّ الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصي منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايمان، وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم، وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مأتم الكفر وعرس الاسلام، وعادبها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا، فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

فصل

قال ا لعماد: وكان المولى الأجل الفاضل متـأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفـائه فمن جملـة ماكتب السلطـان إليه:«أمـا الفتح فمـن جملة بركـات همته، وآثـار جذبـات عزمته، فـإن الله تعالى سهـل ماسجـل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيـم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنـا بهذه الفضيلة بصـالحي السلـف، وقـد بدّل الكفـر بالايمان، والناقـوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالـس الرهبان، وفتحـت بهذا الفتـح مـن بيت الله المقـدس أبـواب الجنـان، وتـزاحـم الخارجون من البلد من الفـرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحـراب، ورفع الملائكة ماكـان تكاثف بأنفـاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركـة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غـزارة الأمواه، وقبلت بـالشفاه وبوشرت بـالأفواه، وطهرت بـأهل العلم والحلـم من أدناس أهل الجهـل والسفاه، والحمد لله، ثـم الحمدلله، وماكـان يعوزنـا ويعوزه إلاّ حضـور المجلس السـامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بـروائه، ولا للانـس لقاء إلاّ بـأنس لقـائه، وكاد يتصحـف الفتـح لولا صـالح دعـائه، وحسن آلائه، والحمـد لله الذي خصنـا بهذه الخاصية، وفضلنـا بالنصرة القدسيـة، وذخر لنـا هذا البر الذي عجـز بل قصر عنـه ملوك البريـة، والحمد لله على هـذه النعمة السنيـة، فما أشوقنـا وأشـوق القدس إلى قـدومـه، وماأظمـأنا وأظمـأه إلى خصـوص الري بـه وعمومـه، وماحـظ هذا البيت الـذي هو أخو البيـت الحرام من زيـارته، وماآنق روضـه وأوفق رضاه إذا فاز بنظـره ونضارته، ونحن نعـرف أن همته العاليـة تحدوه، وأن دينه إلى إجـابة دعـوته تـدعوه، ونسـأل الله أن يكمل صحته، وينعـش قوّته، ويقـوّي نهضته، وما أقمنـا بهذا البلد إلاّ لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومـن كتاب آخـر: «نصرنـا الله بمـلائكته المسّـومين، وأوليـائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى(باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمدلله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:«فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر:«البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيمان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسـه، وإجلاء داويـه واسبتاره وبطـركه وقسـه، وتعويضـه من وحشـة الضلال من الهدى بـأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيتـه المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البـال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمـامية، ورفع مارفع قدره من الأعـلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مـابني دونه من مباني الشرك، وكشف استـار الكفرة التي حجبـت بالهتـك والفتك، وإقـامـة الجمع فيـه والجماعات، وادامـة أوراد العبادات بـه ووظائف الطـاعات، وغسل الصخـرة المقدسـة بدم الكـافر ودمـع المؤمن، ونـزع لباس بـأس المسيء عنهـا بـافاضـة ثوب المحسـن، وتنزيـه تلك الجنـة من دنـس أهل النـار، واعلاء مـاكان درس مـن معالم الأبرار، ومطـالع الأنوار، وقـد رجع الاسـلام الغريب منـه إلى داره، وخرج قمر الهدى بـه من سراره، وذهبت ظلم الضـلالة بأنـواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفـة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصـارت صبـاح السرى، ومنـاخ التعـريـس، وقـد أقصي عـن المسجـد الأقصون مـن الله الأبعدون، وتوافد إليـه المصطفون الأقربـون، والملائكة المقـربون، وخـرس النـاقـوس بزجـل المسبحين، وخرج المفسـدون بدخـول المصلحين، وقال المحـراب لأهله مـرحبا وأهـلاً، وشمل جماعـة المسلمين مـن إقامـة الجمعة والجماعـة ماجمع الاسـلام فيه شمـلاً، ورفعت الاعـلام العباسيـة على منبره فأخذت من بـره أوفى نصيب، وتلت بألسنـة عذبها(نصر من الله وفتـح قريب)، وغسلت الصخـرة المباركة بدمـوع المتقين من دنس المشركين، وبعـد أهل الأحد مـن قربها بقـرب الموحدين، فـذكر بها ماكاد ينسـى من عهد المعراج النبـوي، وأقامت بدلائلهـا براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسـلام باسـلام البيت المقـدس إلى تقديسـه، ورجع بنيـانه مـن التقـوى إلى تأسيسه، وزال نـاموس نـاقوسـه، وبطـل بنص النصر قيـاس قسيسـه، وفتـح بـاب الـرحمة لأهلها، ودخلـت فيـه الصخـرة لفضلهـا، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصـافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبويـة بتجديد عهودهـا، وشهد مقام المعـراج وموطىء براقـه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقـه، ودنا المسجـد الأقصى للراكـع والساجـد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:«تقلص ظـل الكافر المبسوط، وصدق الله أهـل دينـه، فلما وقـع الشرط وقع المشروط، وجـاء أمـر الله وأنـوف أهـل الشرك راغمه، وادلجت السيـوف والآجال نـائمة، واسترد المسلمـون تراثـا كـان عنهم آبقـا، وظفروا يقظـة بما لم يصـدقوا انهم يظفـرون به طيفـا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقـب السور:« فأخلي السور مـن السيارة، والحرب من النظاره، وأمكـن النقاب أن يسفـر للحرب النقـاب، وأن يعيد الحجـر إلى سيرته من التراب، فتقـدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معـوله، وحل عقده بضربـه الأخرق الدّال على لطافـة أنمله، واسمع الصخـرة الشريفة حنينـه فـاستغاثتـه إلى أن كـادت تـرق لمقتلـه، وتبرأ بعض الحجـارة مـن بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثـم قـال: واستقـرّت على الأعلى أقـدامهـم، وخفقـت على الأقصـى أعلامهم ، وتـلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كـانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطـة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمهـا الكفر إلى أن صارت روضة جنـان، لاجرم أن الله أخرجهـم منها وأهبطهم، وأرضـى أهل الحق وأسخطهـم، وأوعز الخادم بـرد الأقصى إلى عهده المعهود وأقـام له من الائمة من توفيـه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابـع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطـرن، والكواكب منهـا للطرب ينتثـرن، ورفعـت إلى الله كلمـة التوحيـد، وكـانـت طريقهـا مسدودة، وظهـرت قبور الأنبياء وكـانت بـالنجاسات مكـدودة، وأقيمت الخمس، وكـان التثليث يقعدها، وجهـرت الالسنة بالله أكبر وكـان سحر

الكفر يقعدهـا، وجهر بـاسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف مـن المنبر فرحب بـه ترحيب من بـر، وخفق علماه في حفافيه، فلـو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيـه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البـؤسى إلاّ رجاء هـذه النعمى، ولايحارب من يستظلمـه إلا لتكون الكلمـة مجموعـة فتكون كلمـة الله هي العليـا، وليفوز بجـوهر الآخـرة لا بالعـرض الأدنى مـن الدنيا، وكـانت الألسنة ربما سلقتـه فانضـج قلوبها بالاكتفـاء والاقتصار، وكانـت الخواطر ربما غلت عليه مـراجلها فأطفـأها بالاحتمال والاصطبـار، ومن طلـب خطيراً خاطـر، ومن رام صفقـة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر».

ووصف فيـه يوم حطين فقـال:«وكان اليوم مشهـوداً، وكانـت الملائكة شهودا، وكـان الضلال صارخا وكـان الاسلام مولوداً، وأسر الملـك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالديـن وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مـادهموا قط بـأمر إلاّ وقـام بين دهمائهم يحرِّضهـم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الـدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فـراشهـم، ويجتمـع في ظل ظلامـه خشاشهـم، ويقاتلـون تحت ذلك الصليـب أصلب قتـال وأصدقـه، ويرونـه ميثاقـا يبنون عليـه أشد عقـد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافـر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلاّ القمص، وكـان لعنه الله مليـا يوم الظفر بـالقتال، ومليئـا يوم الخذلان بـالاحتيال فنجـا ولكن كيـف، وطار خـوفـا من أن يلحقـه منسر الرمـح وجنـاح السيـف، ثم أخـذه الله بعـد أيـام بيـده، وأهلكه لموعـده، وكـان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواهـا بما نشر عليها من الراية السوداء صبغـاً للبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

فصلٌ

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا

معاهدكم ما بالها كعهودكم
وقد كررت من درس آثارها درسا

وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا

أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى

تزول الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

أما لكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا

وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذ سرت عنكم ما سمعت له حسا

وإن نهاري صار ليلاً لبعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا

بكيت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا

فلا تحسبوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلاّ أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي ليالينا الدمسا

جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا

وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وكم لبني أيوب عبد كعنتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها
بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف ويبنى وغزة
تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أربد وأرجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم
فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعماد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:
قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أومن يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخــل ســاحــل هــذا الشــام أجمعــه
مــن العــداة ومــن في دينــه وكســا
ولا تــدع منــه نفســا ولا نفســا
فــإنهم يــأخــذون النفــس والنفســا
نــزلــت بــالقــدس فــاستفتحتــه ومتــى
تقصــد طــرابلســا فــانــزل على قــدســا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:

أبشــر بفتــح أميــر المــؤمنيــن أتــى
وصيتــه في جميــع الأرض جــواب
مــاكــان يخطــر في بــال تصّــوره
واستصعــب الفتــح لما أغلــق البــاب
وخــام عنــه الملــوك الأقــدمــون وقــد
مضــت على النــاس مــن بلــواه أحقــاب
وجــاء عصرك والأيــام مقبلــة
فكــان فيــه لفيــض الكفــر انضــاب
نصراً أعــاد صــلاح الــديــن رونقــه
إيجازه ببليــغ القــول اسهــاب

قــرع الظبــى بــالظبــى في الحرب يطــربــه
لا قينــة صنــع بــاللحــن مطــراب
أحيــا الهدى وأمــات الشرك صــارمــه
لقــد تجلى الهدى والشرك منجــاب
بفتحــه القــدس لــلاســلام قــد فتحــت
في قمــع طــاغيــة الاشراك أبــواب
ففــي مــوافقــه البيــت المقــدس للــ
ــبيت الحرام لنــاتيــه وإعجــاب
والصخــر والحجــر الملثــوم جــانبــه
كــلاهما لاعتمار الخلــق محراب

نفى من القدس صلباناً كما نفيت
من بيت مكة أزلام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم مااخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى
أخرى الزمان على خبر بخبرته

فلو رآك وقد حزت العلى عمر
في قلة التل قضى كنه عبرته

ولو رآك وأهل القدس في وله
أبو عبيدة فدى من مسرته

غداة جزوا النواصي في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته

دارت بك الملة الحسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرته

وأنت كاسمك صديق وصاحبه
الملك المظفر سام في مبرته

وفي السلالة عثمان يؤيده
علا عليّ على ايثار نصرته

وكم لديك ذوو قربى رقوا اشرفا
وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته

يشبه الفتخ(٥٣) مابين البزاة لقى
ملك الفرنج أخيذا بين عترته

أما رأيت معالي يوسف بسقت
حتى رمت كل ذي ملك بحسرته

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته
واستقبح الرجس ممنوّا بمشهده
فاستفتح القدس محشوّا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
بوقعة التل واستشراء سورته
يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوّة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة ، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف
الجدّ في هذا الزمان مبين
والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ
ـمنصور والمستظهر البر الوفي
شدّت قوى أركان ملة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملـــك إذا أم الملـــوك جنـــابـــه
لاذو بـــأكـــرم مـــن يـــؤم وأشـــرف
واذا أتـــوا أسرى إلى أبـــوابـــه
وقفـــوا بـــأعظـــم مـــن يصـــول وأرأف
مـــولى غـــدا اللـــذيـــن أكـــرم والـــد
حـــدب على أبنـــائه مترفـــرف
عـــزل الفـــرنجـــة ثـــم ولى جيشـــه
أعظـــم بـــه مـــن صـــارف ومصرف
قـــد أنصـــف التـــوحيـــد مـــن تثليثهـــم
وأقـــام في الانجيـــل حـــد المصحـــف
مغـــرى بتجـــريـــح الـــرجـــال لأنـــه
يـــروي أحـــاديـــث العـــوالي الـــرعـــف
ملـــك لـــه فـــي الحـــرب بحـــر تفقـــه
ولـــه غـــداة السلـــم زهـــد تصـــوّف
وعليـــه أنـــزل في الجهـــاد مفصـــل
فلـــذاك يقـــرأوه بسبعـــة أحـــرف
عـــزم وحلـــم انسيـــا مـــا كـــان مـــن
عـــزم ابـــن مـــرداس وحلـــم الأحنـــف
يـــا أيها الملـــك الـــذي لطبـــاعـــه
وسيـــوفـــه خلقـــا رضـــى وتعســـف
لله يـــوم عـــروبـــة إذا عـــربـــت
ســـاعـــاتـــه عـــن نصرك المتعـــرف
سنـــت سيـــوفـــك في الـــرؤوس ختـــانـــة
ذهبـــت بمهجـــة كـــل علـــج أقلـــف
آفـــاتهم وافـــت بـــأخـــذك منهـــم
يـــافـــا فكـــم مـــن حسرة وتـــأســـف
أو مـــا رأى الأعـــلاج حين دعـــوتها
بلســـان سيـــف في الكـــريهة ملحـــف

لم تستطـــع عصيـــان أمـــرك بـــل أتـــت
منقـــادة طـــوعـــا ولم تتخلـــف
فـــاستـــدع جـــارتها وثـــن بـــأختهـــا
وكـــذاك حتـــى الأربعين ونيـــف
مـــا للسـواحـــل غير بحـــرك حـــافـــظ
بشبـــاسنـــان أو بصفحـــة مـــرهـــف
هـــذا الطـــراز الأخضر استفتحتـــه
فـــزهـــى بثـوب مـــن عـــلاك مسجـــف
أحييـــت ديـــن محمـــد وأقمتـــه
وسترتـــه مـــن بعـــد طـــول تكشـــف
وضبطـــت ديـــوان الجهـــاد بعـــامـــل
مـــن عـــامـــل وبمشرف مـــن مشرفي
وبجهبـــذ العـــزم الـــذي لا ينثنـــي
وبنـــاظـــر الـــرأي الـــذي لم يطـــرف
فخـــذ الخراج مـــن البسيطـــة كلهـــا
واستـــأد فـــرضي جـــزيـــة ومـــوظـــف
واقبـــض على الـــدنيـــا بكـــف زهـــادة
وابســـط لـــرحمتهـــا جنـــاح تعطـــف
جـــاءت جنـــود الله تطلـــب ثـــارهـــا
وصـــدورهـــا بـــل عـــن قليـــل تشتفـــي
فـــانهض بها وتقـــاض حقـــك مـــوقنـــا
أن الإلـــه بما تـــؤملـــه حفـــي
هـــم فتيـــة الاتـــراك كـــل مجفجـــف
يغشـــى الكـــريهة فـــوق كـــل مجفجـــف
قـــوم يخوضـــون الحمام شجـــاعـــة
لا ينظـــرون إليـــه مـــن طـــرف خفـــي
إن صبحـــوا الأعـــداء في أوطـــانهم
تـــركـــوا ديـــارهـــم كقـــاع صفصـــف

أنــــت اصطفيتهــــم لنصرة ديننـــــا
لله در المصطفـــــــى والمصطفـــــــي

قلت:وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخط شيخنا أبي افضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال:رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملـــك الصيـــاصي والصـــواصي نـــاصر
للـــديــــن بعـــد إيـــاســـه أن ينصرا
وسيفتـــح البيـــت المقـــدّس بعـــدمـــا
يطـــوى الطـــراز لـــه ويقتـــل قيصرا

قلت :وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال :وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر لبيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة ،والمعني بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا و عكا؛ وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدّس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منه:

جنـــد السماء لهذا الملـــك أعـــوان
مـــن شـــك فيهم لهـذا الفتـح بـرهـان

متـــى رأى النـاس مـــا نحكيـه في زمـــن
وقـــد مضـــت قبـل أزمـــان وأزمـــان

هـــذا الفتـــوح فتـــوح الأنبيـــاء ومـــا
لـــه سوى الشكـــر بـــالأفعـــال أثمان

أضحـــت ملـوك الفـرنـج الصيـد في يـده
صيـدا ومـاضـعفـوا يـومـاً ومـاهـــانـــوا

كـــم مـــن فحـول ملـوك غـــودروا وهـــم
خـــوف الفـــرنجـــة ولـــدان ونســـوان

استصرخـــت بملكشـــاه طـــرابلـــس
فخام منها وصمت منه آذان

هـذا وكـم ملـك مـن بعـده نظـر الاسـ
ـــلام يطـــوى ويحـــوى وهـــو سكـــران

تسعـــون عـــامـــا بـــلاد الله تصرّخ والـ
ـــإسلام أنصـــاره صـــم وعميـــان

فـــالآن لبـــى صـــلاح الـديـــن دعـوتهم
بـــأمـــر مـــن هـــو للمعـــوان معـــوان

للنـــاصر ادّخـرت هـــذي الفتـــوح ومـــا
سمـــت لهاهمم الامـــلاك مـــذ كـــانـــوا

حبـــاه ذو العـرش بـالنصر العـــزيـــز فقـــا
ل النـــــــاس داود هـــــــذا أم سليمان

في نصـــف شهـــر غـــدا للشرك مصطلما
فطهـــرت مـــنه أقطـــار و بلـــدان

فـــأيـــن مسلمـــة عنهـــا وأخـــوتـــه
بـــل أيـــن والـــدهـــم بـــل أيـــن مـــروان

وعدّ عما سواه فالفرنجة لم
يبدهم من ملوك الارض انسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما
ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للاسلام تحرسه
من أن يضام ويلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة
فالكفر في سنة والنصر يقظان
ياجامعا كلمة الايمان قامع من
معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى مناما مابعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم
ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتح الشآم وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلاّ طلى بسنابك
تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمدّ الى سيفك الباتر

وكـــم لـــك مـــن فتكـــة فيهـــم
حكـــت فتكـــة الأســـد الخادر
وكسرت صليبهـــــم عنـــــوة
فـــلله درك مـــن كـــاسر
وغيرت آثـــارهـــم كلهـــا
فليـس لها الـدهـر مـن جـابـر
وأمضيـت جـدك في غـزوهـم
فتعسـا لجدّهـم لعـاثـر
وأدبـر ملكهـم بـالشـآم
وولى كـأمسهـم الـدابـر

جنـودك بـالـرعـب منصـورة
فنـاجـز متـى شئـت أو صـابـر
فكلهـم غـرق هـالـك
بتيـار عسكـرك الـزاخـر
ثـأرت لـديـن الهدى في العـدا
فـاثـر لـه الله مـن ثـائر
وقمـت بنصر إلـه الـورى
فسماك بـالملـك النـاصر
وجـاهـدت مجتهـداً صـابـراً
فـلله أجـرك مـن صـابـر

تبيـت الملـوك على فـرشهـم
وتـرفـل في الـزرد السـابـر
وتـؤثـر جـاهـد عيـش الجهـاد
على طيـب عيشهـم النـاضر
وتسهـر ليلـك في حـق مـن
سيرضيـك في جفنـك السـاهـر
فتحـت المقـدّس مـن أرضـه
فعـادت إلى وصفهـا الطـاهـر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو
ح من الزمن الاوّل الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر
محبتكم ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقي القصيدة تقلم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّا وقد عاينتم الآية العظمى
لأية حال تدّخروا النثر والنظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب
وأطرب ذياك الضريح وماضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أيا دواؤه
غير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما
وأسنة الاغماد توسعه لثما

سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان إلا ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى في السلطان:

عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طودا لا تخاف أناته

هو منقذ البيت المقدّس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته

بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته

أمشتت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته

أوتيت عزما في الحروب مسددا
لا زيغه يخشى ولا هفواته

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب
ولك الفعال كثيرة حسناته

هذه سيوفك مرمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما
تحامته سادات الدنا ومسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض أقارب السلطان:

الست من القوم الأولى بسيوفهم
نوا صخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقـــدس أعضـــل داؤه مـــن قبلكـــم
فـــوفيتـــم بشفـــاء ذاك المعضـــل
درج المـلـــــوك على تمنـــــي فتحــــه
زمنـــــا وغلتهـــــم بـــــه لم تبلـــــل
وأتـــى زمـــانكـــم فـــأمكـــن آخـــرا
مـــاقـــد تعـــذر في الـــزمـــان الأول
مـــا كـــان قـــط ولا يكـــون كفتحكـــم
للقـــدس في الماضي ولا المستقبـــل
أوجـــدتـــم منـــه الـــذي عـــدم الـــورى
وفعلتـــم في الفتـــح مـــالم يفعـــل
أيـــدي الملـــوك تقـــاصرت عـــن مفخـــر
طلتـــم بـــه فبلـــو البعـــض الأنمـــل
أحييتـــم شرع الكـــرام ولم يـــزل
نصر المحـــق بكـــم وقهـــر المبطـــل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكـــم لبنـــي صـــلاح الـــديـــن فينـــا
على الاســـلام مـــن حـــق تـــأكـــد
وإنهم على الأمـــــلاك طـــــرا
بفتـــح القـــدس فضـــلا ليـــس يجحـــد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هـــم الملـــوك ذوو بـــأس ومكـــرمـــة
إن ســـالموا أمنـــوا أو حـــاربـــوا خيفـــوا
أغنـــاهـــم القـــدس عـــن قـــول الـــورى فتحـــت
عكـــا وصيـــدا و بيروت وأرســـوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا
ويفوق فخرهما السها والفرقدا

ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا

او ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالاسد الهصور إذا عدا

أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى

بل مالك الدنيا ومالىء رحبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى

ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا

ومن الملوك الصيد يلقاهم إذا
رفع السرادق راكعين وسجدا

وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا

من بعد ما درست معالم سبله
دهراو حرمها أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا،وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ماأحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل،و حق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس،وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ،وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد،والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرواة، وروى المحدّثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظا رائقاً ،وسوى كلاماً بالموضع لائقاً،و روى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض عليّ خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى،وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون،وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الـذي فيه انتعـش الإسلام وانتـاش، ومـا أفضل هـذه الطائفـة الحاضرة، والعصبـة الطاهـرة، والامـة الظـاهرة، ومـا أكـرم هـذه النصرة الناصريـة، والاسرة الإمـاميـة، والـدولـة العبـاسيــة، والمملكـة الأيـوبيـة، والـدولـة الصلاحيـة، وهل في بلد الإسلام أشرف مـن هذه الجماعة التـي شرفها الله بـالتـوفيق لهذه الطـاعـة، وتكلمـوا فيمـن يخطب، ولمن يكـون المنصـب، وتفاوضـوا في التفويـض، وتحدّثوا بالتصريـح والتعريـض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسـى ويجلى، والأصـوات تـرتفع، والجماعـات تجتمـع، والأفـواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين مـن الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حـان الزوال، وزال الإعتـدال، وحيعل الداعـي، وأعجل السـاعي، فنصب السلطان الخطيـب بنصه، وأبان عن اختياره بعـد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الديـن أبي المعالي محمد بن زكي الديـن علي القرشي بأن يرقى ذلـك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمـه عرقى، فأعرتـه من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمـل له شرف الإفاضة والإضافة، فـرقـى العـود، ولقـي السعود، واهتـزت أعطـاف المنبر، واعتـزت أطـراف المعشر، وخطب وانصتوا، ونطـق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبـدع وأغرب، وأعجز وأعجـب، وأوجز وأسهـب، ووعظ في خطبتيـه وخطب بمـوعظتيه وأبـان عن فضـل البيت المقـدّس وتقـديسه، والمسجـد الأقصى مـن أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه،و إخراس نـاقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفـة والسلطـــان، وختـم بقـــولـه تعـالى:(إن الله يــأمـر بــالعـدل والإحسان)[٥٤]ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الـرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نـزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصـلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقـد الإجماع، واطرد القياس، وكـان قد نصب للوعـظ تجاه القبلة سرير ليفرعـه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجـا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقـى، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بـذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنـور عظاته من ظلـم الشبهات مادجا، وأتـى بكل عظة للراقـدين

موقظـة، وللظالمين محفظـة، ولأولياء الله مرققـة ولأعداء الله مغلظـة، وضج المتباكون وعـج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكـروب، وتصاعدت النعـرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبـون وأنـاب المتحـوبون، وصـاح التـوابـون، ونـاح الأوابـون، وجـرت حـالات جلـت، وجلـوات حلـت، ودعـوات علت، وضراعـات قبلت، وفـرص مـن الولايـة الالهية انتهـزت، وحصص مـن العناية الربـانية أحرزت، وصلى السلطان في قبـة الصخرة، والأيدي إلى الله مـرفوعـة، والدعوات لـه مسموعـة، ثم رتـب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هـذه الفاظ العماد في هـذا الفصل مـن كتاب الفتـح، وذكره في كتاب البرق بعبـارة أخرى، تشتمل على فـوائد زائدة، وفي تكرار مـاتقدم أيضـاً بغير تلك العبـارة فـائدة، فإنها معـان جليلـة، كلما ذكرت جلـت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال، وجانباً هريا للغلال، فأمر في ا لعاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ،و عين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكـر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبـدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بـالصدق، ونطق بـالحق ، وفـاز بـالسبق، وحـاز على فضـلاء الغـرب والشرق، فهـو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأيـن سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتـة من نباته، ولـو عاشـا لافتقـراإلى فقره واحتقـرا أعراضهما عنـد جـوهره، ودعـا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونـزل وقام إماماً أكمل بصـلاته الفرض، وأرضـى بسمت دعـواتـه والطمأنينـة في ركعاتـه وسجـداته أهـل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبـه ورفعه ، وامتلأ صـدره حبوراً منـه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطـار المهابة في خواطـر المحبة، وكرمت سرائر الـزلفى إلى الله والقـربـة، ثـم رتـب السلطـان بعــده خطيبـاً يستمـر إقـامتـه للجمـع والجماعات، وتستقـر ملازمتـه لأداء الصلوات، ولما قضيـت الصلاة تلـك الجمعة، نصب سريـر للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعـة، وتقدم السلطان إلى زيـن الديـن الواعـظ ليفـرع السرير، وينفـع بعظاتـه الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمـع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمـع، فحقق ورقـق وأشهد وأشهـق، وخلب بعبـاراته الحلـوة العبرات، وشـار العسل بمعسـول الإشارات، وبشر البشر بشـارة البشارات، وذكـر الفتح وبكارته، والقـدس وطهارته، والدين وجسارتـه، والكفر وخسارته، والقـدر وإعـانتـه، والظفـر وإبـانتـه، والصخـرة وإصراخهـا، والـروعـة وإفراخهـا، والنار وصراطها، والقيامـة وأشراطها، والرحمة وبابها مـن باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعـده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلـوب الخائفة، ووصف ببلاغتـه مالايبلغ إليه نطـق الالسنة الـواصفة، ووصـف الجهاد وفـرائضـه وفضائلـه والخير ودلائله، والنجـح ووسـائلـه، والشرع ومسـائلـه، والـذنـب وغـوائلـه، وإحسـان السلطـان وفواضلـه، والبحر وساحلـه، والدين وحقـه، والكفر وبـاطله، وكان يـوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[٥٥](الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[٥٦] (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[٥٧] (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)[٨٥] الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)[٥٩] (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[٦٠](الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض)[٦١] و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)[٦٢]

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى بـه من المسجـد الحرام إلى هذا المسجـد الأقصى. وعـرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى. عنـدها جنة المأوى. إذ يغشى السـدرة مـايغشـى. مـازاغ البصر ومـا طغـى) [٦٣] صلى الله عليـه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السـابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفـع عن هذا البيت شعـار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النوريـن جامع القـرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا بـرضوان الله الـذي هو الغـاية القصـوى، والدرجـة العليـا، ولما يسره الله على أيديكـم مـن استرداد هذه الضـالـة من الأمـة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسـلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مـائة عام، وتطهير هذا البيـت الذي أذن الله أن يـرفع وأن يذكـر فيه اسمه[٦٤] وإماطـة الشرك عن طرقه، بعـد أن امتد عليها رواقـه، واستقر فيها رسمه، ورفـع قواعده بالتوحيد، فـإنه بني عليه وبالتقوى فـإنه أسس على التقوى من خلفه ومـن بين يديه، فهو موطن أبيكـم ابراهيم، ومعراج نبيكـم محمد عليـه السلام، وقبلتكـم التـي كنتم تصلـون إليها في ابتـداء الإسلام، وهو مقر الأنبيـاء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبـط الوحي، ومنزل تنـزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيـد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتـابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسـول الله صلى الله عليه وسلـم بالملائكة المقـربين، وهو البلـد الذي بعث الله إليه عبده ورسـوله، وكلمته التي ألقاها إلى مـريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالتـه وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عـن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لـن يستنكف المسيـح أن يكون عبـداً لله) [٦٥] وقال :(لقـد كفر الذيـن قالـوا إن الله هو المسيـح بن مـريم) [٦٦] وهو أول القبلتين وثاني المسجـدين وثـالـث الحرمين، لاتشـد الرحـال بعـد المسجـدين إلا إليـه، ولاتعقد الخنـاصر بعد الموطنين إلا عليه، ولـولا أنكم ممن اختـاره الله من عبـاده واصطفـاه مـن سكـان بـلاده، لما خصكـم بهذه الفضيلـة التـي

لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية. أليس هو البيت الذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهـويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على مـا أهديتم إلى هذا البيـت من طيب التوحيـد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهـم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفـاجر الخبيـث، فالآن يستغفـر لكم أمـلاك السموات. وتصلي عليكـم الصلوات المبـاركات. فاحفظـوا رحمكم الله هـذه الموهبة فيكم. وأحـرسوا هذه النعمـة عندكـم بتقوى الله التـي من تمسـك بها سلم، ومـن اعتصم بعروتها نجـا وعصم. واحـذروا من اتباع الهوى. ومـوافقة الـردى. ورجوع القهقرى. والنكـول عن العدا، وخـذوا في انتهاز الفـرصة وإزالة مـابقي من الغصـة. وجاهـدوا في الله حق جهـاده. وبيعوا عبـاد الله أنفسكم في رضـاه إذ جعلكم مـن خير عبـاده. وإياكـم أن يستـزلكم الشيطـان. وأن يتـداخلكـم الطغيـان، فيخيـل لكـم إن هـذا النصر بسيـوفكـم الحداد. وبخيولكـم الجياد. وبجـلادكم في مـواطن الجلاد. لا والله (مـا النصر إلا من عند الله إن الله عـزيز حكيم) [٦٧]. واحذروا عباد الله بعـد أن شرفكم بهذا الفتح الجليـل. والمنح الجزيـل. وخصكم بهذا الفتـح المبين. وأعلق أيديكـم بحبله المتين. أن تقترفـوا كبيراً من منـاهيه. وأن تـأتوا عظيماً مـن معاصيه، فتكونـوا (كالتي نقضت غزلها من بعـد قوة انكاثاً) [٦٨] (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فـاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) [٦٩] والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عبـاداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيـام الله يذكركـم، اشكروا الله يزدكـم ويشكركم. جـدوا في حسم الـداء. وقطـع شـافـة الأعـداء. وتطهير بقيـة الأرض التـي أغضبـت الله ورسـولـه. وأقطعوا فـروع الكفـر واجتثـوا أصـولـه. فقد نـادت الأيـام: بالثارات الإسلامية والملـة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله مـن كفر. واعلمـوا رحمكم الله أن هـذه فرصـة فانتهـزوها. وفريسـة فناجـزوها، ومهمـة فأخـرجوا لها هممكـم وأبرزوهـا. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرهـا. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول. وهـم مثلكم أو يزيدون. فكيـف وقد أضحى في

قبالـة الواحـد منهم منكـم عشرون. وقد قـال الله تعالى:(إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبـوا مائتين)[٧٠] أعاننـا الله وإياكم على اتبـا ع أوامره والازدجار بزواجـره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنـده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[٧١].

وتمام الخطبـة الثانيـة قريـب مما جـرت به العـادة، وقال بعـد الدعـاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننـا عبدك الخاضع لهيبتك، الشـاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفـك القاطـع، وشهـابك الـلامـع، والمحامـي عن دينـك المدافـع، والذابّ عـن حرمـك الممانـع، السيد الأجـل الملك النـاصر ، جـامع كلمـة الإيمان، وقـامع عبـدة الصلبـان، صلاح الـدنيـا والديـن، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبـا المظفر يوسف بن أيـوب، محيـي دولة أمير المؤمنين، اللهـم عـم بـدولته البسيطـة، واجعـل ملائكتك برايـاته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفـي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عـزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسـلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر في المغـارب والمشارق دعوته. اللهـم فكما فتحت على يده البيـت المقدّس بعـد أن ظنـت الظنون، وابتلي المؤمنـون. فـافتح على يـده أداني الأرض وأقاصيها، وملكـه صياصي الكفرة ونواصيها، فـلاتلقاه منهم كتيبة إلا مزقهـا ولاجماعة إلا فرقها، ولاطـائفة بعد طائفـة إلا ألحقها بمن سبقهـا، اللهـم اشكر عـن محمـد صلى الله عليـه وسلم سعيـه وأنفـذ في المشـارق والمغارب أمـره ونهيه، اللهـم أصلح بـه أوساط البـلاد وأطرافهـا وأرجاء الممالك وأكنـافها، اللهم ذلل بـه معاطس الكفار، وأرغـم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكـه على الأمصار، وأثـب سرايا جنـوده في سبل الأقطار، اللهم ثبـت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الديـن واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقـائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهـم . اللهم كما أجـريت على يـده في الإسلام هـذه الحسنة التـي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعـوام، فارزقه الملك الأبدي الـذي لاينفـد في دار المتقين، وأجـب دعاءه في قـولـه: (رب أوزعنـي أن أشكـر نعمتـك التـي أنعمـت علي وعلى والـديّ وأن أعمـل صـالحاً ترضاه)[٧٢](وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)[٧٣] ثم ماجرت العادة به

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ماأمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث احداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاخترينى، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس ، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل ،و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولايقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوّة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملأ) (٧٤) ولم يزل لنور الـدين في قلبه من الدين نـور، وأثر تقواه للمتقين مـأثور، أزهـد العباد، وأعبـد الزهـاد، وهـو من الأوليـاء الأبرار والاتقيـاء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتـح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيـب، ويزيده قوة عـزمه جداً، ويمدّه بحيـاء الحياة الربانيـة مداً، وقد طهـره الله من العيب، وأطلعـه على سر الغيب، ونـزهه من الـريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركتـه، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبـاه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجـح، واتفق أن جامـع حلب في الأيـام النورية احترق فـاحتيج إلى منبر ينصب فنصـب ذلك المنبر، وحسـن المنظر وتـولى حينئذ النجـار عمـل المحراب على الـرقم، وشـابـه المحراب المنبر في الـرسم، ومـن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القـدس تقدم بحمله، وصح بـه في محراب الأقصى تفريـق شمله، وظهـر سر الكرامة في فـوز الإسلام بـالسلامـة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتـاب البرق : وكان الملك العادل نور الديـن محمود بن زنكـي رحمه الله في عهده عرف بنـور فراسته فتـح البيت المقدس مـن بعده، فأمر في حلـب باتخاذ منبر للقدس، وتعـب النجارون والصناع والمهنـدسون فيـه سنين، وابدعـوا في تركيبـه الأحكام والتـزيين، وأنفق في إبداع محاسنـه وإبداء مزاينه ألـوفاً ، وكان لترديد النظـر فيه على الأيام ألـوفاً، وبقي ذلـك المنبر بجامع حلـب منصوباً ، سيفـاً في صوان الحفظ مقروباً، حتـى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفـاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعـه القدسي، فعرفت بذلـك كرامات نور الـدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الـذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).(٧٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ماأسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ماذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها ،و عمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه ، وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ماتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، قال،وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولاهو من قبيل

-٨٥٩٣-.

الكرامـات، أيضاً فإن الكرامـة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تـاريخ، ولـذلك لم يـوافق الصـواب لما أدار الحساب على القـراءة الأخرى الشـاذة التي هي بفتح الغين مـن (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنـه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلـم الوقت الذي يرفع فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولامطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين،وحبيت بالقبل،و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام.في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزا، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها بدعاً حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض ملوكهم إشفاقاً عليها لئلا تمتد يد ضيم إليها ، فأبقت حزوزها في القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لاتزال بين أيدي الزائرين على كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين ، فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع ، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع، فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لايؤبه له، لوأقسم على الله لأبره، وهناك كمل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن،وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها ، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر ماعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بها أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال ،وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقيه ، وكان من جملة ماشرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عما يصل من المدد.

قال وأما محراب داود عليه السلارم خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً،و هو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد ، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيهما الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقياء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ماأدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون*وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)[٧٦] ،فباعوا ماتهيأ لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام ومايجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال : هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر آلفاً واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعرّشوا وغرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمراء الفرنج ومقدّميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، و رحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا:إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء، ولاينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال : وأقام السلطان على القدس حتى تسلم مابقربها من حصون، واستباح كل ماللكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ماجمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا ماأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للمآل، فقال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديه، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفرنّ بما لم يحوه ملك
أبا المظفر حظا خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سن عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوعا له وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب
أخرى الزمان لدين كاد يبتتر
زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا
علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال: ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الــرايــة الصفــراء يــرمــى اصطفـاقهـا
بنــي أصفــر بــالــراعفــات اللهــاذم
فتسبـــي فلسطينـــا وتجبـــي جـــزائرا
وتملــك مــن يــونــان أرض الأســاحــم
وتعنــوا لها الأمـــلاك شرقــا ومغــربــا
بــذا حكمــت حـــذاق أهــل الملاحــم

قال: وبعثت إليه في غـزة سنة اثنتين وثمانين وهـو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فيـــا ملكـــا لم يبـــق للـــديـــن غيره
وهـــت عمـــد الاسلام فـــاشـــدد لها دعما
فشـــؤم فـــريـــق الشرك في الشـــام طـــائر
فقــص جنــاحيــه بــأقصـــى القــوى قصما
خصصـــت بتمكين فعـــم العـــدا ردى
فـــإنهم يـــأجـــوج أفـــرغ بها ردمـــا
إذا صفــرت مـــن آل الأصفــر ســاحـــة الـــ
ـــمقدّس ضــاهــت فتــح أم القرى قــدمــا
فـــذا المسجـــد الأقصـــى وهمتـــك العلى
وعـــزمتــك القصـــوى ورميتــك الصمـــى
فما هــــــو إلاّ أن تهم وقــــــد أتــــــت
فتـــوح كما فــاض الخصـــم الـــذي طما
وإن أنــت لم تـــرد الفـــرنـــج بـــوقعـــة
فمـــن ذا الـــذي يقــوى لبنيــانها هــدمــا
ومـــا كـــل حين تمكــن المرء فـــرصـــة
ولا كـــل حــــال أمكنــــت تقتضي غنما
وليـــس كفتـــح القـــدس منيـــة قـــادر
ومـا أن تلقــاهــا سوى يــوســف جــزمــا

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذا حين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم
من غير تيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلاب والـلان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالوث رهبان
ولابن أيوب في الافرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك الارض من ملك
كأنه ملك في الخلق حنان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاسبتار إلى الداوية التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا

والنفس مولعة عجبا بسيرتها
وفي المقادير ما تسلى به السير

ياوقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر

وياضحى السبت ماللقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا

وياضريح شعيب مالهم جثموا
كمدين أم لقو ارجفا بها كفروا

حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر

أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر

أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر

وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر

وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيا وحيى وهو يعتذر

رأى مليكا ملوك الارض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر

إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدّم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علا من قبلنا صدروا

أمـــا رأيتهـــم فتـــوح القـــادسيـــة في
أكنـــاف لـــوبيـــة تجلى وذاعمـــر

والحق يعـــرس والطغيـــان منتحـــب
والكفـــر يطمـــس والايمان مـــزدهـــر

هـــذا المليـــك الـــذي بشرى النبـــي بـــه
في فتنـــة البغـــي لـــلاســـلام ينتصر

أنســـى مـــلاحـــم ذي القـــرنين واعترفـــت
لـــه الـــرواة بها لم ينمـــه اثـــر

أعين اسكنـــدر بـــالخضر وهـــولـــه
عـــون مـــن الله يستغنـــي بـــه الخضر

وصنـــع ذي العـــرش ابـــداع بـــلا سبـــب
فـــلا تقـــل كيـــف هـــذا الحادث الخطـــر

بينـــا سبـــا يـــاه تجلى في دمشـــق إذا
ملـــك الفـــرنـــج مـــع الاتـــراك محتجـــر

ازاءه زعماء الســـاحلين معـــا
مصفـــديـــن بحبـــل القهـــر قـــد أسروا

يتلـــوهـــم صلبـــوت سيـــق منتكســـا
وحـــولـــه كـــل قسيـــس لـــه زبـــر

ونحـــن في بـــذا وذا طير صحيفتـــه
بفتـــح عكـــا التـــي سدت بها الثغـــر

تغـــزو أســـاطيلنـــا منهـــا صقليـــة
فتـــذعـــر الـــروم والصقـــلاب والخزر

مـــن ذا يقـــول لعـــل القـــدس منفتـــح
إليـــك بـــل سفـــر يعقـــوب لـــه السفـــر

أبـــو المظفـــر ينـــويها فخـــذ سفنـــا
مـــن بـــاب عكـــا الى طـــرطـــوس تنتشر

يسبـي فـرنجـة مـن أقطـار هـا ولـه
مـع المجـوس حـروب قـد حهـا سعـر
وبعـض أبنـائه بـالقـدس منتـدب
وبعضهـم رومـة الكبرى لـه وطـر
بـرايـة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقـول لـه الاجسـام لاوزر
قـالـوا أطلـت مـد يحافيـه قلـت كما
بـدأت فـالصـب للمحبـوب مـدّكـر

وأمـا القصائد التـي لـه فمنها التـائيـة لـه، وقد تقـدم ذكـرها، ومنهـا القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصـاريـف دهـر أعـربت لمن اهتـدى
وبسطـه أمـر أغـربـت مـن تمردا
لسرعـة فتـح القـدس سر مغيـب
وفي صرعـة الافـرنـج معتبر بـدا
أتـوا كجبـال أبـرمـت لأسـارنـا
فسقنـاهـم فيهـا قطينـا مجددا
وسـامـوا تجارا تشترينـا غـواليـا
فبعنـاهـم بـالـرخـص جهـرا على النـدا
وجـروا جيـوشـا كـالسيـول على الصـوا
فـاضـت غثـاء في البطـاح ممـددا
وقـالـوا ملـوك الأرض طـوع قيـادنـا
إذا الكـل منهـم في القيـود معبـدا
وقـد أقطـع الكنـد العـراق مـوقعـا
فـأودع سجنـا وسـط جلـق مـؤصـدا
وأقسـم أن يسقـي بـدجلـة خيلـه
فما ورد الاردنّ إلا مصفـدا

فكــم واثــق خجــلان قهقــه خصمــه
وكــم ســـائق عجــلان قهقــر مقعــدا
أتــى الكنــد مــن اسبــان يحمــي قمامــة
فكـــان تقضـــى ملكـــه قبــل يبتــدى
فما عقـــد الـــرايـــات إلا محلـــلا
ولا حلـــل الـــرايـــات إلا معقـــدا
ووقعـــة يــوم التـــل إذ قبضــت بــه
جبـــابـــرة الافـــرنــــج حيرى وشردا
عليهــم مـــن البلـــوى سرادق ذلـــة
ومـــن ذل مـــاتـــت نفســـه فتقيــدا
تــرى المنسر الــديـوى يلقـي سـلاحـه
وينســـاق مـــابين السبـــا يـــا ملهـــدا
يبـــاعـــون أسرابـــا شرائح أحبـــل
كشكـــة عصفـــور مـــن الـــريـــش جـــردا
فتلقـــى نصـــارى جلـــق في مـــأتـــم
يسرونها إلا شجـــــــى وتنهـــــــدا
ألم تـبـــر للسلطـــان صـــدق نـــذره
دم الغـــادر الابـــرنـــس فـــاقتيـــد اربـــدا
وبـــاشر بـــالقتـــل وســـط خبـــائه
وعـــاينـــه الكنـــد المليـــك فـــارعـــدا
وضاقــت بنفس القمص الأرض مهـربا
فـــأدركـــه الموت المفـــاجـــىء مكمـــدا
ومـــاطـــرق الاسماع مـــن عهـــد آدم
كملحمـــة التـــل التـــي ثلــت العـــدا
آتـــوا واديـــا مـــازال ينفـــي خبـــائثـــا
ويصفـــي بعقبـــى الـــدار طـــائفـــة الهدى

بـه جثمـت أصحـاب ليكـة وهـي في
ذراه ذا فيــه شعيــب تــأيــدا
أرى الله فيــه معجـز النصر مخلصـا
لأمـر صلاح الـديـن في النـاس مخلـدا
واعـدى جنـود الـرعب تـردي عـداتـه
وسلـم جميـع المسلمين مجنـدا
ومـن عجـب خمسـون ألـف مقـاتـل
سبتهـم جيـوش ليس فيهـا مـن ارتـدى

وللرشيد بدر النابلسي:
هـذا الـذي كـانـت الآمـال تنتظـر
فليـوف لله أقـوام بها نـذروا
بمثـل ذا الفتـح لا والله مـا حكيـت
في سـالـف الـدهـر أخبـار ولا سير
حين بـه حـان هلـك المشركين فيـا
لله طيـب العشـايـا منـه والبكـر
الآن قـرت جنـوب في مضـاجعهـا
ونـام مـن لم يـزل حـافـالـه السهـر
يـا بهجـة القـدس إذ أضحى بـه علـم الـ
ـلاسلام مـن بعـد طـيّ وهـو منتشر
يـا نـور مسجـده الأقصـى وقـد وقعـت
بعـد الصليـب بـه الآيـات والسـور
شتـان مـا بين نـاقـوس يـدان بـه
وبين ذي منطـق يصغـي لـه الحجـر
الله أكبر صـوت تقشعـر لـه
شـم الـذرى وتكـاد الأرض تنفطـر

يـا مـالـك الأرض مهـدهـا فما أحـد
سـواك مـن قـائم للمهـد ينتظـر
مـا اخضر هـذا الطراز الساحلي ثمـرا
الا لتعلـو بـه أعـلام مـلك الصفـر
أضحـى بنـو الأصفـر الانكـاس مـوعظـة
فيهـا لأعـدائك الآيـات والنـذر
صـاروا حـديثـا وكـانـوا قبـل حـادثـة
على الـورى يتقيهـا البـدو والحضر
سلبتهـم دولـة الـدنيـا وعيشتهـا
حتـى لقـد ضجـرت مـن وفـدهـم سقـر
هـذا الـذي سلـب الأفـرنـج دولتهـم
وملكهـم يـا ملـوك الارض فـاعتبروا
مـراكـز مـا اختطـاهـا الخوف مـذ مـائة
عـامـا ولا ريـع أهلـوهـا ولا ذعـروا
ولا أصرح بـأسماء البـلاد فقـد
أسهبـت والقـائل المنطيـق يختصر
يغنيـك مجمـل قـولي عـن مفصلـة
في لفظـة البحـر معنـى تحتـه الـدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:
المم بـدار النـاصر الملـك الـذي
في كفـه للجـود سبعـة أبحـر
فـإذا مـررت بملكـه وفتـوحـه
فـاسخـر بما يـروى عـن الاسكنـدر
وإذا بصرت بجـاشـه وجيـوشـه
فـاحـث التراب على ذؤابـة سنجـر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

كسرت على كسرى لعدلك دولة
قصرت مهابتها تطاول قيصر

أهدى صلاح الدين للاسلام اذ
أردى قبيل الكفر ما لم يكفر

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدما في قديم الاعصر

خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاءا بالطراز الاخضر

راياته صفر يردن وتنثني
حمرا تمج نجيع آل الأصفر

لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدّس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر

وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
ـبيت المقدس هول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر

واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر

حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ
ـن الصخرة العظمى وبين المشعر

فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ
ـحجر المفضل عند أفضل معشر

فكأنه انسان عين صورة
يلقاك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد:ثم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره وأحكم في ا لتعميرتدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الأفضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على ا لكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى،و حسام الدين طمان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هونين، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين، وكان بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رعيته، ثم دخلها وسكن بالقلعة وسكن الأفضل برج الداوية،وولى عكا عز الدين جرديك، ووقف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصوفية، ووقف دار الاسقف بيمارستانا، ووقف على كل من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلّا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همذان، وأذربيجان، وارّان، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسماح مشغوف، مايفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دنياه، فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهدا في الجهاد، واملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي | هي في النصر نجدة الاسلام
في يمين السلطان ان جردتها | أشبهها صواعق في غمام
تنثر الهام كالحروف فما أشـ | ـبه هذي السيوف بالاقلام
في محاريب حربه البيض صلت | وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما ادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزلـه الله علينا من الرحمة والـرأفة إلا من هو عنـدنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنـون الفضائل، وأعرف بأداء الـرسائل فلا يـرفع العظيم الا بالعظيـم الرفيع، فـإن الشريف يتضع شرفه بمقـارنة الوضيـع، فقال هـذه نصرة مبتكرة، وموهبـة مبشرة، بدرت ونـدرت فنحن نعجـل بها بشيراً، ونؤخـر لـلاجـلال كما ذكر ت سفيراً وكـان في الخدمـة شاب بغـدادي من الأجناد، وقـد هاجر لـلاسترفاد، وتـوجه بعد وصـوله، وتنبـه بعـد خموله، فسـأل في البشـارة إلى بغـداذ، وزعـم أنه يـداوم إليهـا الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابـر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لايحصل لـه وقع، ولايصل إليه نفع، والواجـب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفـر في هـذه النصرة الكبرى كبير، ثـم سـار المنـدوب وشغلـت عن ارسـال سـواه الفتـوح والحروب، ولما فتح البيـت المقـدس أرسـل ببشارتـه نجـاب ونفذ بها كتـاب، ووصـل البشير الجندي فحقـروه وماوقـروه، فإنه كان عنـدهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظـروه بتلك العين ، وحبـوه بما يليق بـه من الـرقـة والعين، ونقم على السلطـان إرسال مثلـه، وتسمج المنـدوب بكلام أخـذ عليه، وبـدرت منه أحـاديث نسبـت إليه، وقال في سكره وحالـة نكره مانعرض عن ذكره، فخيـل وموّه، وتنكر وتكره وظـن أن لكلامـه أصلاً وللفظـه منا وصـل، وانهيت إلى العـرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهـالاته، وتجني على السلطان بإرسالـه، وطرق إلى هداه ماانكروه مـن مقال المذكور وضلالـه، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعـاية طريقـاً ، وطلبوا الشمـل استسعادة بالخدمـة تفريقـاً، واختلقوا أضـاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنـه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعـت بـالملك النـاصر، نعـت الإمـام النـاصر، ويـدل بماله مـن القـوة والعساكر، فـاشفق الـديوان العـزيز على السلطـان من هـذه، وبرز الامـر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هـذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشـف سر الأمـر بـالمراد، فإن أخـاه هنـاك مطلـع على الاسرار، وهـو منتظـم في سلك الاوليـاء الأبرار، وعـوّل عليه الـديوان في السفـارة ، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل.والمظفر. والافضل.والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف،و قال : أما ما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل مايشرّفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وماعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن مما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)[٧٧] ،فمن الـذي زلزلوه فثبـت، ومن الذي حصـدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللـرأي الصلاحي مايزيد علوّه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابـن القادسي أن الجنـدي الذي أرسلـه صلاح الـدين بـالبشارة يعرف بـالرشيد بـن البوشنجي، قـال: وكان صبياً كثير الادبـار، مشمراً في دروب بغداد، ثم تـوجه إلى الشام هارباً من الفقـر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيـامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الديـن بالانكار عليه، وقيل له: أما كـان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الـديوان، فاعتذر صلاح الديـن، ووصلت كتبه بالاعتـذار، وقبل عذره، وأما ابـن البوشنجي فإنه حين وصولـه إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الديـن، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكـان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنـا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجـد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلـة فتح بيت المقدس في هذا العـام، فالحج والجهاد ركنـا الاسلام، فـاجتمع جمع جـم من أهـل ديار بكـر والجزيرة والشـام، وسـار بهم الأمير شمس الـدين بـن المقـدم شيخ أمـراء الاسلام الكـرام، فودّعه السلطان على كره من مفـارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مـامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قـد بلغ والشيب قد أنذر، والفـرض قد أعـذر فاغتنم فـرصة الإمكـان قبل أن يتعـذر، فمضى والسعـادة تقـوده، والشهادة تـروده، حتـى وصـل إلى عـرفات، ومـاعـرف الآفـات، وشاع وصـوله، وذاع قفـوله، وضربـت طبولـه وسالـت سيولـه، وجالـت خيوله، وضربـت خيامه، وخفقـت أعلامه، فلما أصبحـوا نقرت كالعادة نقـاراته، ونعرت بوقاتـه، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقـي، فركب إليه في أحزابه فأوقـع به وبأصحابه وأبلاهـم بجراحـه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكـد اسبابه، وقتل جماعة من حـاج الشام وجرحوا، وهتكت أستـارهم وافتضحوا، ونقـل أمير الحاج طاشتكين شمس الـدين ابن المقدم إلى خيمتـه، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معـه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقـدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمـه، وكيف لم يـراقب الله وأحـل حرمـه، وكيف عـدا على الحاج العائذ بـالله وسفـك دمـه، فكتب محضراً على مـااقترحـه بعذره فيما اجترحـه، وألزم اعيان الحاج من سـائر البلاد بوضع خطـوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكـرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليـه ضرب الطبل فـأبى، فلما انتهـت الحالـة إلى الخليفة أنكـرها انكـاراً

شـديداً، ونسبهـا إلى طيش طـاشتكين، ولم يجد له رأيـاً سديـداً فلا جـرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعـد سنين، وحبسه بها وأطـال سجنه ، ثـم عفا عنـه بعد مـدّة مديـدة، وشدّة شـديدة، وولاه حـرب بلاد خوزستـان وخراجهـا، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابـن المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضـاعته، فـاحتسبه عند الله غـازياً شهيـداً، ساعيـاً إلى الجنة بقدمه سعيـداً، وأقام ابنه عز الديـن ابراهيم في بلاده، مقامـه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمـد بن القادسي في تـاريخه، ونقلته مـن خطه: أراد أمير الحاج بـالشام وهـو ابـن المقدم أن يـرفع علماً على الجبـل بـالموقف فمنعـه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحـاج الشام، ونهب البعـض البعض، وجـرت جراحـات، فجرح ابـن المقدم ولم يغير العـادة في ذلـك، ومات ابـن المقـدم بمنى في اليـوم الثـاني، ووصلت النجـابة مـن مكة فـأخبروا بما جرى مـن أصحاب ابـن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة تـوفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعـر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيـس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولـده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بـابن المنى، وكان فقيها زاهداً صالحاً عـالماً، مولده سنة احـدى وخمسمائة، وتفقه عليـه جماعة مـن أئمة الحنـابلة، كـالحافظ عبـد الغني بن عبد الـواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيـخ الموفق عبد الله

ابن أحمد بن قدامـة، ومحمد بن خلف بن راجح، والنـاصح عبد الر حمن ابن نجـم بن عبد الـوهاب، وعبد الـرزاق بن الشيخ عبـد القادر الجيلي وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلـك اليوم اتفق دخـولي إلى دمشق عائداً مـن القدس، فـأقام رحمه الله في دمشـق خمسة أيـام، وكان لـه غائبـا عنها أربعـة عشر شهرا.

قال: وفي ذلـك اليوم الخامـس بلغه خبر الفـرنج أنهم قصـدوا جبيل، واغتالـوها فخـرج منزعجا سـاعة بلوغ الخبر، وكـان قد سير إلى العسـاكر ليستدعيهـا من سـائر الجوانب، وسـار يطلب جبيـل، فلما عرف الفـرنج بخروجه كفـوا عن ذلك، وكان بلغـه وصول عماد الدين وعسكـر الموصل ومظفـر الديـن إلى حلب قـاصديـن الخدمـة للغزاة، فسـار نحو حصـن الأكراد في طلـب الساحـل الفوقـاني ، ولما كان مستهـل ربيع الآخـر نزل على تل قبـالة حصـن الأكراد ، ثـم سير إلى الملك الظـاهر ولـده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالـة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عسـاكر الشرق حتى اجتمعت بخـدمة السلطان في هذه المنـزلة، ووصلت إليـه رحمه الله في هذه المنـزلة فـإنه كـان قد سير إليّ إلى دمشـق يقول تلحقنـا نحو حمص، فخرجـت على عزم المسير الى الموصـل متجهزاً لذلك، فـوصلت إليه امتثالاً لأمره، فلما حضرت عنده فـرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت لـه كتاباًفي الجهاد بدمشق مدّة مقامـي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كـل وقت وهو يـدافعني عـن ذلك ويستدعيـني للحضور في خـدمته في كـل وقـت، ويبلغني على ألسنـة الحاضريـن ثناؤه عليّ وذكـره إياي بالجميـل ، فأقام في منزلتـه تلك شهر ربيع الآخـر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصـن الأكراد وحاصره يـوماً يجسـه به، فما رأى الوقـت يحتمل حصاره ، واجتمعت العسـاكر من الجوانـب ، وأغار على بلـد طرابلس في هـذا الشهـر دفعتين ، ودخـل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها مـن العسـاكر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى السـاحـل ، وهـو قليـل الأزواد، وهو محيـط بنـا في بـلاده مـن سـائر الجوانب فاحملـوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسـى، وكشـف لي أنه

ليس في عـزمه أن يمكنني من العـود إلى بلادي، وكان الله تعالى قـد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريـخ مستهل جمادى الأولى، وهـو يوم دخولـه الساحـل الأعلى، وجميع ماحكيتـه من قبل إنما هو روايتـي عمن أثق بـه ممن شاهدوه ، ومـن هذا التاريـخ ماأسطـر إلاّ ماشـاهدتـه ، أوأخبرني به مـن أثق بـه خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش،و هو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدهـا، وكان الصفي قدبنـى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بـالقلعة، وأنفق عليهـا أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرهـا وتحسينها، وظن أنها تقـع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنهـا، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التـي أوجبت عزله عن الـديوان، وقال مايصنع بـالدار من يتوقـع الموت، وماخلقنـا إلا للعبادة والسعـي للسعادة، ومـاجئنا دمشـق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال:ثم هم بـالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضـل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفـراش بالشرف الأعلى في بستانـه، فاستضاء بـرأيه فيما يريـد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: ومـا أحسن ماقـال ابن الـذروي في الآراء الفاضلية مـن قصيدة مدحه بها:

لـرأيـك هـذا النصر للـديـن ينتمـي
فـلا ينتحلـه كـل عضـب ولهذم

وإن كـان فيـه لـلأسنـة والظبـى
مسـاعـدة فـالفضـل للمتقـدّم

تشير على الاسـلام منـك فـراسـة
لها حـزم طـب واحتراز منجـم

وتحميـه ألفـاظ لـديـك كـأنها
قـواطـع بتراً ونـوافـذ أسهـم

ألا حبـذا فتـح نشرت لـواءه
وقلـت لخيـل الله يـاخيـل أقـدمـي

وقمـت وقـد نـام الأنـام منـاجيـا
بمـولاي نـجّ المسلمين وسلـم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراآى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في ابراج الاطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصبوغه، صفركأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً كأنما هو خرط من الصندل، وخلط با لمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس، وتكرررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده، واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وانها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج مافيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعاقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية

وعـوّل عليه فيهـا، وقال: إن الاشتغـال بطرابلـس مع احتراسهـا يذهـب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منـك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قـوله، وأصفى له ورد طـوله، وكـان قـد وصل إليـه مقـدمو جبـل بهراء، فـوفر لهم رواتبـه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدّمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم مااشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدوّ، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها ومابها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وماستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولاطريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدّم عليها طاغية يقال له المرعريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لايظهر له رأي ولايرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصفيفها وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها فمازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعـامة المسلمين في سلـوك ذلك المضيـق حتـى خفت الأثقـال، وعبرت الأحمال، وخلـص المسلمـون مـن ذلـك الشـق بغير مشقـة، وجـازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الـرحيل فـاعترضهم نهر عريـض عميق مافيـه طريـق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطـرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضـى يمينـاً إلى الجبـل وأبعد حتـى عبر فـوق رأس العين، واختلطـت العساكـر بالنهـر من الجانبين، وتـزاحمت الاثقال على القنطـرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطـان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كـاسمها بلـدة وهي بليـدة من غـربي النهر على شـاطىء البحـر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحـران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعـة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمـون في الوقت وذلـك أن قاضيهـا كان قد سبـق ودخلها، وقرن بالنجـح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعـلام الناصرية على سـورها، وخلـص المسلمـون بها مـن مساكنـة الكفـرة، وتحصـن الفرنـج بحصنيها، واحتموا بقلعتـهـا، فما زال قاضي جبلة يخوّفهم ويـرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهـم إلى أن يردوا مـن انطاكيـة رهائن جبلـة من المسلمين، فضبط عنده جماعـة من رؤوس الفرنج والمقـدمين، حتى أعاد صاحب انطـاكية الرهائن التي عنـده ففك بها رهائنه، وتـولى قاضي جبلة الأمر فاستخـرج ذخائر الكفر ودفائنـه، واستنظفهم من كل سـلاح وعدة وخيل وقوّة، وجاء مقدمـو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريـق حماة حصن يعـرف ببكسرائيل، وكـان أهل الجبـل استعادوه مـن الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الـدين عثمان صـاحب شيـزر، وبجل قـاضي جبلة وشرفـه، وحبس عليـه ملكـاً نفيسـاً ووقفـه، وصرفـه في املاك آبـائه وحكمـه في ولايـة حكمـه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا بتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدوّ الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان،و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنما زاد سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت، ورغب في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورد إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها، ومافي البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه :أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطانك، وظهر احسانك، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة، لملكت قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً وأطاعوك قريباً وبعيداً ، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقانيم، وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم، فقال له السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعدَ في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتدّ الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بمادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.

فصل

في فتح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ .

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العــاصي في طاعة الله على تــل كشفهان، فتسلم حصــن بكاس يوم الجمعــة تاســع الشهر، وحــوّل خيمة خفيفــة إلى الجبل لحصــار قلعة الشغــر، وهــي تلة شــامخة مــن أعلى التلــل مطلة على واد عميــق، وكــان الكفار قد أخلــوا بكاس من الرعــب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهــي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طــول أمرهــا، فبينما هو مفكر في ذلــك والفرنج قــد داخلهم الــرعب، فارسلــوا في طلب الأمان واستمهلــوا ثلاثــة أيام، فكبر المسلمون وفــرحوا وأصبحوا يوم الجمعــة والشغر شاغر، والكفر صاغــر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعــة بكاس، وتلــك الاعمال على غــرس الديــن قليــج، وكان هــذا قليــج قد تسلــم كفــر دبين، وهو معقــل حصين يسكنــه الأرمن في ذلــك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بــإيالتــه أمرهــا المصون، وعــاد إلى مخيمه يــوم السبت، وهــو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغــالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانيــة مضايقا لها بــالحصر فتسلمها يــوم الجمعة ثالــث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخــرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهــدّ أركانها، ومابرح حتى سواهــا بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قــال: وهــذه ســت مــدن وقلاع فتحــت في ســت جمع تبــاع: جبلــة والــلاذقيــة وصهيــون وبكــاس والشغــــر وسرمــانيــة. وأطلــق بها الأنفــس والنفائس العانيــة، فقد كان في هذه المعاقل مــن أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهــذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكيــة التي فقئت، ونحــرها الذي عنــه حلئت، ولم يبق لأنطــاكية

من الحصون سوى ثلاثة: القصير، وبغراس، ودربساك، وقد أصبحت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

فصل

في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها،فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)[٧٨] ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه،ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدوّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابنة لها، وبجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدوّ، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة تمنيه الآمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدّون مواهبه ممالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله،وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطيء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)(٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسحبوا، وثقلت به موازين أعمالهم،فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ماسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولاممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لماملكت حصون انطاكية
يئس الصليب وحزبه من مظهر

أرديت كل مثلث متكبر
بموحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عزمتك التي
مدّت يداً عن مطلب لم يقصر

فتناولته بأيدها من باذخ
في الافق ذي مثل يروع مسير
فانهض لصور فهي أحسن صورة
في هيكل الدنيا بدت لمصوّر
ما سور صور عاصم منه وهل
سور المعاصم عاصم لمسوّر

- ٨٦٥١ -

فصل

في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاةللإسلاممنيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثاث وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيـام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكـن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحـق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت بـاخراج حصـونها مـن ولايتهـا أرواحها، وقـد بقيـت غـرضاً للعسكـر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بـالنفس والبلـد، والأمل والـولد، ونحـن لاراحة لنـا إلا في هذا التعـب، ولاأرب لنا في غير هـذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغـزى لنا غير الغزاة، ومانـرجو من الله إلا انجاز العدات في جميـع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبـان صباح الموحدين وأبينا أمانهم إلا أن يفـدوا نفوسهـم، وينـزعـوا من الحرب لبـوسهـم، ويخلعـوا بأسهـم ويلبسوا بوسهـم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسـة آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شـدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطـاكية من دربسـاك، وكـانـت كثيرة العـدة والرجـال، فنـزل العسكـر في مـرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنـا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانـب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجـم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قـال: وأنا ممـن كـان في اليـزك في بعض الأيـام، لـرؤيـة البلد وزيـارة حبيب النجـار المدفون فيه عليـه السلام. ولم نزل نقـاتل بغراس مقـاتلة شديدة حتـى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقـي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقـال العماد: ولما فتحـت دربسـاك لم يبـق لنـا همة إلا بغـراس، وقـد شارف رجـاء أكثر النـاس في فتحه اليـاس، وهو حصـن حصين، ومكان مكين، هو للداويـة وجار ضباعها، وغـاب سباعها، وهو بقـرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالـدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدين دينـه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولايبرحون بـازاء أنطاكية صفـا يرمون، لأهلهـا فتحا وحتفاً يتنـاوبون على سبيل اليـزك، ويدعـون العدا إلى المعترك، وليـس بينهما إلا النهر، فصعـد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصـب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقـل إليها أحـواض الماء وروايـاه، وبـث في النواحـي سراياه، وفـرق على الجميع عطـاياه، وأقمنـا عليه اسبـوعاً نجـري إليه مـن كل منجنيـق من فيـض الحجارة ينبـوعاً، ونحـن نفكر فيما يكـون، ومتى تتـم الحركة وفيـم السكون، وهـذا بيكار يطـول، وتعب لايزول، إذ رأينـا باب الحصـن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بما فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دربساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليما ن بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلترم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ماحسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك سنة سبع أو ثمان وثمانين، وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوّقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وإنقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة مـن حوران التي يخاف عليها من جانبهـا صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العماد: وودع السلطـان عماد الدين صـاحب سنجار والعسـاكر الغربية، وأتحفهم بالتحف العجيبـة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جـانب حلـب وقـد خرج كـل من بها للتلقـي مستبشريـن بالاقبـال المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيـوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حـاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطهـا إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهـرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظـاهر قد سار فيها أحسـن سيرة. ثم سـار منها على طـريق المعـرّة وقصد زيـارة الشيخ الزاهد أبي زكريـا المغربي عند مشهد عمر بن عبـد العزيز رحمه الله، فتبرك

بزيـارة الميت والحي، ثـم وصل إلى حماة فنـزل بقلعتها، ومعـه أمير المدينة النبويـة على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام، وهو عز الـدين أبـو فليتة القـاسـم بن المهنـا، وكـان للسلطـان في جميـع الغزوات مصـاحبـا، وعلى معـاضدتـه مواظبـا، وماحضر معنـا على بلد أوحصـن إلا فتحناه، وكـان السلطـان يستـوحش لغيبتـه، ويـأنـس بشيبتـه، وكان بجنـب السلطـان جالسـاً، ولنظره عليـه حابسـاً ، وكانـت قلعة حماه ذات تـل منبطح، فلما تولاهـا تقي الـدين رفـع تلها وعمـق خندقهـا وحصنها، فطلـع السلطان تلك الليلـة إلى القلعة، وسر بما رأى من الحصانـة والرفعة، ووقـف الملك المظفر لعمـه وجرى في الخدمة على رسمـه، وأصبح السلطـان راحلاً، ولم يقـم بحمص وجـاء إلى بعلبـك على طريـق الـزراعـة واللبوة ووصـل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بـأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامـه مورده ومصدره، وأربـح في سبيل الله متجره، فقـال: إن القدر غير مأمون، والعمـر غير مضمون، وللفرض أوقات وللدهر آفـات، وبقيت مع الكفر هـذه الحصون، وإن لم نبـادرها اختـل أمرنـا المصون، لاسيما صفـد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتاريـة في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

واهية السداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولامكث، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته، وأخذ عدوّه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عيذاب، ولما نبابه المنزل منها، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، وحصل لمن جرت على يده أجرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها، وقد رغب في خطابة الكرك، وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

فصل

في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: ماننام حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقال العماد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت

الموقـوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفـد من أيـديهم دخلت أرجلهـم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانـت في عين الاسلام قذى، لايتـوقـع منهـا على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهـل الله صعبهـا، وأوطـأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقـذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مـذعنين، واستسلمـوا مسلمين، وتبرؤوا مـن حصنهـم، ونـزلـوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهـائنهم للإستمهال في نقـل متاعهم، وندمـوا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنـج بصور ونحن نضايق حصن صفـد، وقالوا: متى فتحت صفـد فإن كوكب لاتمتنـع، وأملنا عن حفظها ينقطـع، والرأي أن نجـرد لها نجدة لعلهـا تثبـت إلى أن توافينـا مـن البحـر ملوكنـا، فسيروا مـائتي رجـل فتفرقـوا في تلـك الأودية يكمنـون في الشعاب والهضـاب، واتفـق أن أميراً من أصحـابنـا خـرج متقنصاً فـوقـع أحـدهم في قنصـه، وحصل طـائر منهم في قفصـه، فاستغرب وجـوده في ذلك المكـان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعـده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الديـن قايماز النجمي وأجناده إلا وقـد نزلوا عليهم في آكـام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهـم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحـد من أولئك الضلال إلى نهج فـرار، فما شعرنـا ونحن على صفـد للحصار،حتـى وصل صاحـب قايماز بالأسارى مقـرنين في الاصفاد، مقودين في الاقيـاد، وكان فيهما مقدمان مـن الاسبتار، وقد أشفيا على البتـار، فإن السلطان رحمه الله ماكـان يبقى على أحـد من الاسبتاريـة والداويـة، فأحضرا عنـد السلطان للمنيـة، فأنطقهما الله بما فيـه حياتهما، ونـاجيـا بما به نجـاتهما، وقالا عنـد دخولهما: مـانظن أننـا بعدمـا شافهنـاك يلحقنا سـوء فعرفـت أن بقاءهما مرجـو، فمال إلى مقالهما، وأمـر باعتقـالهما فإن تلـك الكلمة حـركت منه الكـرم، وحقنت منهما الـدم، وفتـح الله علينا صفـد ثـامن شـوال. حين فرغنا مـن صوم ست منه بعـد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتـي الصوم

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الـدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ماأحكمه الكفار.

فصل
في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدوّ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا : لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانـداء، والانوار معدومة لـوجود الأنواء، وماء الشرب مفقـود مع سيـول الماء، والرواحـل في الطين باركـة وهي للعلـف تاركـة، والطريـق زلقة، وهـي مع سعتهـا ضيقة، فنقـل السلطان خيمتـه إلى قرب المكـان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجـارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصـابرتـه، ونحن نـركب إليـه من الخيـام بكرة وعشيـة للسلام، وتنفيـذ المهام، حتـى بلغ الـرجال أماكـن النقوب، وتمكـن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمـان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحـد سوى قـايماز النجمي على كـره منه، وذلـك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فـاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عـن السلطان: «مما تجدد بحضرتنـا فتح كـوكـب، وهي كـرسي الاسبتاريـة ودار كفـرهـم، ومستقـر صـاحب أمـرهـم، ومـوضع سـلاحهم وذخـرهـم، وكـان بمجمع الطـرق قاعـداً، وللملتقى السبل راصداً ، فتغلقـت بفتحه بلاد الفتح واستـوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بـلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلاصور، ولولا أن البحر ينجـدها والمراكب تردها لكان قيـادها قد أمكن وجماحها قـد أذعن، وماهـم بحمد الله في حصن يحميهـم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمـواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فـلا تعجل عليهـم إنما نعدّ لهم عـدا)(٨٤) ،وكان نـزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداويـة المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السـامي أعلـم بما كان على الإسـلام من مـؤنته المثقلـة وقضيته المشكلـة، وعلتـه المعضلة، والله تعـالى المشكـور على مـاطوى مـن كلمـة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بـلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلامـاً سلاماً)(٨٥) فـ(ادخلوها بسلام)(٨٦) وكان نزولنا على كوكـب والشتاء في كـوكبه، وقد طلـع من الأنـواء في موكبـه والثلوج تنشر على الجبال طـي ملائهـا، والأودية قـد عجت بمائهـا وفاضـت عند

امتلائهـا، فشمخت أنوفهـا سيولاً، وخـرقت الأرض وبلغت الجبـال طولاً والأوحـال اعتقلـت الطـرقـات، ومشـى المطلـق فيهـا مشيـة الأسير في الحلقات فتجشمنـا العناء نحن ورجـال العسآكر، وكابـرنا العدوّ والـزمان وقد تحرّز الحظ المكابـر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلهـا، وضمير الأمانة فأعـان على حملها، ونزلنـا من رؤوس الجبـال منازل كان الاستقـرار عليها أصعب مـن ثقلها» ثم قـال: «والآن فالمجلس السـامي يعلم أن الفـرنج لايسلـون عما فتحنـا، ولا يصبرون على مـاجـرحنـا، وأنهم لعنهـم الله أمـم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فـوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)(٨٧) وماهم إلا كلاب قد تعـاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقذفـوا من كل جانـب استأسدوا واستكلبوا، وكـانوا لباطلهم الـداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخـدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينيـة، والثغور المغـربية ينـذرون بـأن العدوّ قـد أجمع أمراً، وحـاول نكراً، وغضبـوا زادهم الله غضباً، وأوقـدوا ناراً للحرب جعلهـا الله عليهم حطباً، وسلـوا سيوفـاً للبغي لايبعـد أن يكونـوا أغمادها، وتـواعدت جموع ضـلالتهـم أخلـف الله ميعـادهـا، وأمـا نحـن فبـالله نـدفـع مـانطيـق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنـا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحـن الآن نستنجد أخـانا ونـدعوه إلى مـالـه دعينا، ونـؤمل مـن الله أن ينصرنـا دنيا ودينـا، ونـرجـو أن يمدنـا بنفسـه سريعـاً وبعسكره جميعـاً وبذخـره الذي كان لمثلـه مجموعاً، وأن يلبيهـا دعوة إما أن يطيـع بها ربه لأنها دعوتـه، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليـه وسلم فـإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسـام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فـإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن لـه بدار،والجنة الجنة فإنها لاتنـال إلا بإيقاد الحرب على أهل النـار، والهمة الهمة، فـإن البحار لاتلقى إلا بالبحـار، والملوك الكبار لايقف في وجوههـا إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنـة ننزل على أنطاكيـة، وينزل ولدنـا المظفر تقي الـدين على

اطـرابلس، ويستقـرّ الـركاب الملكـي العـادلي بمصر لأنها مـذكورة عنـد العدوّ أنها تطـرق، وأن الطلب على مصر والشام منـه يفرق، ولاغنـى عن أن يكون المجلـس السيفي بحرا في بـلاد الساحـل يزخر سـلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم إلا العظيم، ولايـرجى لموقـف الصبر الكريم إلا الكـريم، هـذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشـأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانـرتاب بأن الله تعالى مافتح علينـا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينـا هذه الأمـة ليفرقهـا، وإنما يـؤثر أن يتسـاهم آل أيـوب في ميراثهم منـه مواقف الصبر، ومطـالع النصر، ولايسرنـا أن ينقضي عمره في قتـال غير الكافـر، ونزال غير الكفـر المناطـر، فـإنما هي سفـرة قاصـدة. وزجرة واحـدة ، فإذا هـو قد بيـض الصحيفة والـوجه والـذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عـاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن لهم مع عمهم عماً».

وله إليـه من كتاب آخر وكـأنه بعد اعتذاره عـن الحضور: «المولى على حسب اختيـاره إن سار فمثله من سـار وسر، وقاد الجيش وجـرّ، ونفع الولي وضر العـدوّ الذي أضر، وإن أقـام فالعـذر الذي أقعـده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهـه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره مـن الأمريـن حرج، ولايخف استقصـار عزمـه إن ركد أو خـرج، فمكانه مكـانه من القلب، ووده وده، وله من اللسـان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيـف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيـق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكـرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيـه: « والآن فقد خلص لنا جميـع مملكة القدس وحدهـا في سمت مصر من العـريش، وعلى صوب الحجاز مـن الكرك والشوبـك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحـن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنـوا بشعار أهـل القصر ودخلوا مـن باب زويلـة إلى قرب الصيـاقلـة مجذوبي السيـوف لادالـة الـدولـة الـزاهقـة، ونصرة الـدعـوة البـاطلـة، وهـم ينـادون يال علي، وفي زعمهـم أنهم يقبلـون بـالصـولـة، ويقلبون بـالباس لبـاس الدولـة، ويخالون أنهم إذا ثـاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهـم منبعث، فلما تحققـوا أنهم لامجيـب لهم ولاداع تفرّقـوا في الـدروب واضمحلـوا، وكانـوا عقـدوا على الـوفـاءفـانحلـوا، ثم أخـذوا ووقـذوا، واعتقلـوا ولم يستنقـذوا، ولما علـم السلطـان بهذا الأمر عـراه الهم، وتضجر بمـن على بابـه من وفـود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهـم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافـق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقـال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقـد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نيـاتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهـم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنسـاً، فقال السلطان: كان الملـوك قبلي تخافهم وتهرب منهـم الرعية، وتتـوقع منهـم البلية، والآن فقد تكـاثروا علينا، وتـوافدوا إلينا حتـى اضجرونا وأملـونا ونفرونـا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعـاورونا بالقصص، وساورونا بالغصـص، فقال له: أنت أولى بشكـر الله على هـذه العـارفـة: كـان بمصر مـن صـاحـب القصر وأشياعه، وخدمـه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخـلاصه وجهاته والزامه،كـل من كان يرتع الخلـق في رياض انعامه، وكان بـالشام في كل بلد وال وصـاحب له على أهله نعـم ومواهب، وملوك يلـوذ بهم الاقارب والأجـانـب، واليـوم أنـت سلطان الجميـع، وقـد ردّ الله الآمـال في تلـك الصنائع كلها إلى مالـك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئـك المتفرقون على بابـك، ووفدوا إلى جنـابك، فلا يجدون بعـد الله إلاّ جودك، فـأكرم وفودك، فأغـرورقت بالدموع عينـاه، وبالسماح يداه، وأقسم أنـه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصدّ وافداً ،وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

فلا يضجرنك ازدحام الوفود ... عليك وكثرة ماتبذل

فانك في زمن ليس فيه ... جواد سواك مفضل

وقد قل أهله المنعمون ... وقد كثر البائس المرمل

ومافيه غيرك من يستماح ... ومافيه إلاّك من يسأل(٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وماأظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوّا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي:«وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

الرقعة ذكـر الجمال الخيفي، وكأنه كـان له مثل حاجـة الجويني، رحم الله الكل أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال،وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينة، والـوزير يومئذ معـز الدين بن حـديدة، يأمر بـالخطبة لولي العهـد عدة الـدين أبي الفضـل نصر محمد بـن الامام النـاصر، فاستقبلـه السلطان وأولاده وأمـراؤه وأجناده، وخطـب له بـذلك يـوم الجمعة ثـالث عشر صفر خطيـب دمشق ضياء الـدين أبو القاسـم عبد الملك بـن زيد الدولعـي، فلما انقضت الخطبـة وعاد الـرسول سير السلطـان معه رسـوله ضياء الديـن القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معـه الهدايا والتحف السنـايا، وأسـارى الفـرنـج الفوارس، وعـددهـا النفـائس، وتاج ملكهـم السليـب والملبـوس والطيـب والصليـب. وهـو الـذي كـان فـوق القبـة بالصخرة المقـدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك مـن الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسـولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسـارى الفرنج على هيئتها يـوم فراغها راكبـة حصنها في طوارقهـا وبيارقها وأدراعهـا، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابـن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصـارى فدفن تحت عتبة باب النـوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحـاس وقد طلي بالذهب، فجعل يـداس بالأرجل ويبصـق النـاس عليـه، وذلـك في سادس عشر ربيـع الآخـر، كـذا قـال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثـم إن الخليفـة النـاصر اعتقـل ابنه هـذا بعـد مـدّة في سنـة احـدى وستمائة، وأراده على خلع نفسه مـن ولاية العهد ففعل وأشهـد على نفسه بذلك، ثم قضـى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهـد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الـدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنـة اثنتين وعشريـن، وتـولى بعـده فأقـام نحـو تسعـة أشهـر ، وتلقـب بالظـاهر، ثم تـوفي وولي ابنه المستنصر المنسـوب إليه المدرسة ببغـداد، ثم تـوفي سنـة أربعين، وولي ابنـه المستعصـم بـالله وهـوالخليفـة الآن، والله المستعان.

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه ومـا أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان، وماآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحماله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعله يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر ومأأذنوا لي في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا ، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدوّ، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكر فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأ مر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدوّ يتبسطون، ويصلون إلى جبل تبنين يحتطبون، وفي قلبه من رجالة المسلمين وماجرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين حتى قطع تبنين، ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدّمهم الملك لعنه الله، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعث بعوثاً كثيرة فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من الترك، وأربعة من العرب منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسن الشباب يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً من مماليك السلطان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم

يجدوه فعرّفـوا السلطان فقده، وأنفـذ من يكشف عـن حاله فـوجدوه بين القتلى فحملـوه إلى المخيم، وعـافـاه الله، وعـاد السلطان إلى المخيـم يـوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم مـن الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلـص مـن الأسر، وقالـوا: نحـن في جمع جـم خارج عـن الحصر، وقـد تواصلت إلينـا أمداد البحر فثربنا للثـار، وأعرنا من هذا العـار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقـوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمـون عليه والمركيس يمدّهـم من صور بالمدد والعـدد، ثم جـاء الخبر أنهم على قصد صيـدا للحصر، وقد جسروا على عبـور الجسر، ووقعـت عليهم اليـزكية فـردوهم، ووقـع في الأسر مـن سبـاعهم سبعـة، فحملـوا إلى سجن دمشـق، ثم ذكـر قتلهم للغـزاة المطوعـة على الجسر، وقال: لم يصب الكفـار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكـره، وأذاقونا بعد أن حـلالنا جنـا الفتوحـات مرارة هـذه المرة، فأيقظنـا الله من رقـدة المغره، وأخـذ الناس حذرهم، وقـالوا: بهذا وعد الله حيث قـال: (فيقتلون ويقتلون)(٨٩) وعباده هـم الذيـن يتبعون أمـره ويمتثلون، ثـم ذكر وقعـة الكمين. قال: وكـان مع المسلمين أربعة مـن أمراء العـرب، فحملوا كما وصـاهـم السلطـان على عزم الطـراد ليقصـدوا الكمين، وسلكـوا أسفـل الوادي، وإنما الطـريق أعـلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعـرف الفرنـج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيـق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهـدوا، قال: وكـان معهم مملوك للسلطـان يقال لـه أيبك السـاقي فـاعتزل إلى صخـرة واحتمـى بها، ونكب كنـانته ورمـاهـم بنشابها، وهـم لايقدرون على الاقتحـام إليه بالخيـل، فرموه بالـزنبورك، حتى كثـرت فيه الجراحـات، وظنوا أنـه قد مـات، ووصل الخبر إلى المسلمين فـأدركوهـم، ووقفـوا على الشهـداء وقبروهم، وجـاؤوا إلى أيبـك فـوجدوا فيـه الـروح فنقلـوه إلى الخيام ، وهـم يظنـون إنه لاخـلاص لـه من الحمام، وكـان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

- ٨٦٨١ -

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير،وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلّاشيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصدّهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومذد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: يالـلاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا، وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولايسبقونها وهم يسيرون خبباً وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد، وينادي فيهم: ياللاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، وآوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهـم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فـإنهم أتبعوهم إلى العياضيـة فلما رأوهم قد صعدوا الجبـل رجعوا عنهم وجاؤوا عـائدين إلى عسكرهـم،فلقيهم جماعـة من الغلمان والخربنديـة والساسـة منهزمين على فعـال الحمـل فقتلوا منهـم جماعـة، ثـم جاؤوا على رأس السـوق فقتلـوا جماعة، وقتل منهـم جماعة، فإن السوق كان فيه خلـق عظيم، ولهم سلاح وأما الـذين صعدوا الخيـم السلطانية فـإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصـلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنـاه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسـلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتـم، فعادوا منحـدرين مـن التـل يطلبون عسكـرهم، وأمـا السلطـان فإنـه كان واقفـاً تحت التل ومعـه نفر يسير وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو ،فلما رأى الفـرنج نـازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولـوا ظهورهـم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملـوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتـد الطمع فيهم وتكاثـر الناس وراءهم حتى لحقـوا أصحابهم والطرد وراءهـم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن مـن حمل منهم قد قتل، وأنـه إنما نجـا منهم هـذا النفـر فقـط، وأن الهزيمـة قد عـادت عليهـم فاشتـدوا في الهرب والهزيمة، وتحركـت الميسرة عليهم وعـاد الملك المظفـر بجمعـه من الميمنـة، وتحايا الـرجال وتـداعت، وتـراجع النـاس من كـل جـانب وكـذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظـل النـاس في قتل وطـرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهـزمون السالمون إلى عسكر العـدو، فهجم المسلمون عليهـم في الخيام ، فخرج منهـم أطلاب كـانوا أعدوهـا خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعـب قد أخذ من الناس والخوف والعـرق قد ألجمهـم، فتراجـع النـاس عنهم بعـد صـلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهـم فرحين مسرورين، وعاد السلطـان وجلسوا في خدمته يتـذاكرون من فقد منهـم، فكان مقدار من فقـد منهم من الغلمان والمجهولين مـائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهـد في ذلك اليـوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقـد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لايوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع مافي الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل مـاأخذ قتيـل عقد عقـدة فبلغ عـدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومـائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلـب لم يعدّهم فإنهم ولي أمـرهم غيره، وبقي من العـدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقامـوا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشـذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبـب الهزيمة، فـإنـه مـارجع منهـا إلا رجـل معـروف خاف على نفسـه والباقون ذهبـوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأمـوال المنهوبة وإعادتها إلى أصحـابها، وأقام المنـادية في العساكـر وقرن النـداء بالـوعيد والتهديد، وهو يتـولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمـع من الأقمشة عدد كثير في خيمتـه حتـى أن الجالـس في أحد الطـرفين لايـرى الجالـس في الطرف الآخـر، وأقام مـن ينادي على مـن ضاع منـه شيء فحضر الخلق وصـار من عـرف شيئا وأعطـى علامتـه حلـف عليه وأخـذه من الحبـل والمخـلاة إلى الهميان والجوهـرة، ولقـى من ذلـك مشقـة عظيمة، ولايـرى ذلك إلا نعمة من الله تعـالى يشكر عليها ويسابق بيد القبـول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشـة على أربابها فرأيت سوقاً للعـدل قائمة لم ير في الدنيا أعظـم منها، وكان ذلك في يـوم الجمعة الثالث والعشريـن من شعبان.

قال: وعند انقضاء هـذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطـان بالثقل حتى تراجـع إلى موضع يقال لـه الخرّوبة خشية على العسكر مـن أرايبح القتلى وآثار الوقعـة من الوخم، وهو مـوضع قريب من مكـان الوقعة إلا أنه أبعد عنهـا من المكان الذي كـان نازلاً فيه بقليل، وضربـت له خيمة عند الثقـل، وأمر اليـزك أن يكون مقيماً في المكـان الذي كـان نازلاً فيـه، واستحضر الأمراء وأرباب المشـورة في سلخ الشهر، ثم أمرهـم بالاصغاء إلى كـلامه، وكنـت مـن جملة الحاضريـن، ثـم قـال: بسم الله والحمـد لله والصـلاة على رسول الله، اعلمـوا أن هذا عـدو الله وعدونـا، وقد وطـىء أرض الاسـلام، وقد لاحـت لوائح النصرة عليـه إن شاء اللـه تعالى، وقـد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد مـن الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب.علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ماحمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول ،وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه —وقال في الفتح: وعشرة آلاف ـ قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بموارارة الشهداء ومن جملتهم

الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان ،غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقيه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الآخرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فما علم وراجعته في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقي خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلـك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفـت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتـن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديـدها أهل الكفر، فحمل أكثر مـن خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثـة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عنـد خيم الأثقـال المضروبة، فسـار إليها رابـع رمضان، وأمـر أهل عكـا باغـلاق أبوابها، وإحكام أسبـابها، فوجد الفرنـج بذلك الفـرج، وشرعوا في حفـر خنـدق على معسكـرهـم حــوالي عكـا مـن البحـر إلى البحـر، وأخرجـوا ماكان في مـراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يـوم يأتينا اليـزكية بخبرهم، وبما ظهر مـن أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميـم حفرهم، فكان من قضاء الله أنـا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملنـاهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا مـن ترابها السور، فكانـوا يخندقون ويعمقون ويعملـون من تراب الحفـر حولهم سـوراً ، فعاد مخيمهـم بلداً مستـوراً معموراً، فملـؤوه بالستائر، ومنعـوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وتـرسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركـوا إليه لواغل مجالاً، وتركـوا فيه أبواباً وفـروجاً ليظهروا منهـا إذا أرادوا خـروجـا، ولما فـرغـوا مـن هـذا الأمـر اشتغلـوا بـالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفـاضل إلى العماد جواباً عن كتابـه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت مـاجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنـا على ضعف حركته، والأمر كان عـظيماً، والمدفـوع أعظم، والسـلامة كـانت غـريبة إلا أن نقـول ولكن الله سلـم، والسلطان أعزه الله إذا سلـم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجـد وقد عدم الناس كلهـم فقد وجدوا وماعـدموا، وكل جوهـر بالإضافة إليـه عرض ، وهـو جوهـر بـالحقيقة مـاعنـه من كـل جـوهر عـوض» ومـن كتاب لـه إلى السلطان أ وّله:(ثم أنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين)(٩٠)

الآيـة (ومـارميت اذ رميـت ولكن الله رمـى) (٩١) ورد الكتاب بخط مـــــــولانـــــــا مـــــــن معترك حربه وجـلاده وتوفيق جهاده،قبل أن تضـع الحرب أوزارها، وهرع الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعـون الأخبار، ويستوضحون من وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عـاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار، ويشكرون الله على سلامـة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسـلامة سلطانهم، ومأدراك ماسلامـة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى، وقد يقـرأ الكتاب ومـايلمح قارئه منـه حرفا، وتصـوّر الناس الأمـر الذي وقاهم الله شره وكفاهم أمره.

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمةمن الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فتاهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين ، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف:«والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، ومايتقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين،فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمنآد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا،وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك،يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ،والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا

وكسلـوا ولزمـوا الحيرة، وعدمـوا الغيرة، ولو انثنـى والعياذ بـالله للاسـلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجـد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومـن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحميـة من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، ولـه باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجـون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطـان قد كتب إلى مصر يستدعي بـأخيه العادل في رجـال، فقدم علـه منتصف شـوّال،وكتب أيضـا في طلب الاسطـول المصري، فقـدمت خمسـون قطعـة مع حسـام الديـن لـؤلؤ منتصـف ذي القعـدة، فجاءت فجـأة على مراكـب الفـرنج وبغتتهـا وسحقتها وبـددتها وكسبتهاو سلبتهـا، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما مـن أموالهم ورجـالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهـرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدوّ نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركـه فيهاأحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجـاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليـلا يعرف، وغزواته مشهـوره وفتكاته مـذكوره، وأمواله مبـذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا بـرجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجـاله المسلمين يتطـرقون إليهم ليـلا، ويذيقـونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجـدة بكل مايمكنه من أسباب البـاس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيـض—مع عزة وجوده— مـاوجده ، ومن التراس والرمـاح من كل جنـس أحكمه وأقومه وأجـوده، وكتبنا في شكره:«وصل السـلاح وتم

للاسلام من قروح الكفـر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العـدد، ومن العجـب أن تفنى العدة ومـا يفنى العـداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهـم والكفر إلى الردى يردهـم»

ومن كتـاب إلى الديوان:« قـد مضت ثـلاثة أشهر شهـر بها التثليث على التوحيـد سلاحه، وبسـط الكفر جناحيه وقتـل من الفرنـج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فـارس وراجل ورامح ونـابل، فما أثر ذلـك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نار حـرصهم، وليس هذا العـدّو بواحـد فينجع فيـه التدبير ويـأتي عليه التدمير، وإنما هـو كل من وراء البحـر، وجميع مـن في ديار الكفر، فـإنه لم يبق لهم مدينـة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطـة صغيرة ولا كبيرة ، إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبـرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سـائرها، وطـار طائرهـا، ونقضت خـزائنها، وانفضـت معادنها، وحملـت ذخائرهـا، وبذلـت أخـائرها، ونثلت كنائن كنـائسها، واستخرجـت دفائن نفائسها، وخرج بصلبـانها أساقفها وبطاركها، وغصت بـالأفواج فجاجها ومسالكهـا، وتصلبت للصليب السليـب، وتعصبت للمصـاب المصيب، ونادوا في نواديهم بـأن البلاد هي بلادهـم، وأن اخوانهم بالقدس أبـارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيـوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّتـه وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد،وتواصلت منهم الامداد»

قال:« ووصلـت في مركـب ثلاثمائة امرأة فـرنجية مستحسنـة اجتمعن مـن الجزائر، وانتـدبـن للجـرائر، واغتربـن لاسعـاف الغـربـاء، وقصـدن بخروجهن تسبيل أنفسهـن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العـزبان، ورأين أنهن لايتقربـن بأفضل من هـذا القربان، وزعمن أن هـذه قربة مافـوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال:«وأبـق من عسكـرنا مـن المماليك الأغبيـاء، والمدابير الجهلاء جماعـة جذبهم الهوى، واتبعـوا من غوى، فمنهـم من رضي للـذة بالذلـة، ومنهم مـن ندم على الـزلة، فتحيـل في النقلة، فـإن يد مـن لايرتـدلاتمتدّ، وأمـر الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستـدّ، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبـان المضيفين من فرجها فـرج». قال:ووصلت أيضاً في البحـر امرأة كبيرة القدر، وافـرة الوفر، وفي جماعتهـا خمسمائة فارس بخيولهم وأتبـاعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مـايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بها تنفقـه فيهم على المعـونـة، وهـم يركبـون بـركبـاتها ، ويحملون بحمـلاتها، ويثبون لـوثباتها، وفي الفـرنج نساء فـوارس، لهن دروع وقوانـس، وهن في زي الرجـال يبرزون في حومـة القتال ويعملـن على أرباب الحجـى، وهنّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعلنه لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ».

وفي يوم الـوقعة طلعـت منهنّ نسـوة لهنّ بالفـرسان أسـوة، وفيهنّ مـع لينهـنّ قسوة، وليـس لهنّ سـوى السوابـغ كسوة، فما عـرفـن حتى سلبـن وعـرّين، ومنهـنّ عـدّة سبين واشترين، وأمـا العجـائز فقد امتـلأت بهنّ المراكـز وهن يشـدّدن تـارة وتـارة يرخين، ويحرضـن وينخين، ويقلـن إن الصليب لايرضـى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفنـاء، وإن قبر معبودهم تحت استيـلاء الأعـداء، فـانظـر الى الاتفـاق في الضـلال بين الـرجـال والنساء».

قال: وفي آخرهـذه السنة ندب السلطان الرسـل إلى الاقطار والأمصار للاستنفـار والاستنصـار، وبـث الكتـب وكتب بـالبـث، وحـث الرسـل وراسل بالحث، وسرّح عـدنان النجاب إلى سيف الاسـلام باليمن، وشرح في الكتـاب إليه مـاجرى مـن حوادث الـزمن، ووصـف له جليـة الحال، وطلـب منه الإعـانة بـالمال، وكوتـب مظفر الـدين قـزل أرسلان بهمـذان

ببعث مادنا منه عزمـه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجـة الاحسـان، ووصل الى السلطـان رسـول ابـن أخيه لأمـه ركـن الديـن طغرل بـن أرسلان بـن طغرل بـن محمد بـن ملكشاه، وهـو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمـه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بما هو عليـه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الديـن أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبـد، لكونه نسيـب العماد، وكتب إلى صـاحب إربل و إلى حسـن بن قفجاق ونائبه بشهـرزور بالتوفر على خدمته، والارتيـاد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الـدين سنقر الخلاطي أخص مماليـك السلطان وأخلصهم، وقد قـدّمه على مماليكـه، وكانت وفاتـه ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالـث عشر شعبان توفي الأمير حسام الديـن طمان صاحب الرقة، وهو مـن المجاهدين المجتهدين، والأتقيـاء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تـأسف من موته على فـراشه،وطلب حصانه ليركبـه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسـع عشر شعبان توفي الأمير عز الـدين موسك بـن جكر، وهو ابـن خال السلطان، وهـومن أكابـر أقاربه، ومقـدّمي كتائبـه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضـاء حقوق الناس ملاحظاً، ولم يزل للسلطان في هـذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفـر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حـادي عشر رمضان توفي بدمشـق القاضي شرف الديـن بن أبي عصرون،ومـولـده في أوائل سنـةاثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلـغ عمـره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده،وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان،ومن أهل الجدّ في نصرة الايمان ، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محّرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، براً ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة(بعضها من بعض) (٩٢) ، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد »ثم ذكر باقي الكتاب

- ٨٧٠٣ -

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابـن شداد:ولما دخل شهر رمضـان منْ سنة خمس وثمانين وصل من حلـب كتب من ولده الظـاهر، يخبر فيها أنه قـد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وستون ألفـا، يريـد البلاد الاسلاميـة، فاشتـدّ ذلك على السلطـان وعظم عليه، ورأى استنفـار الناس للجهاد واعـلام خليفة الوقـت بهذه الحادثة، فاستندبني لـذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجـار،وصاحب الموصل، وصاحـب إربل واستـدعاهـم إلى الجهاد بـأنفسهم وعسـاكرهـم، وأمرني بـالمسير إلى بغداد، فسرت حـادي رمضـان، ويسر الله تعـالى الوصـول في الجماعة، وابلاغ الرسـالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفـوسهم، وسير صاحب الموصل عـلاء الديـن ابنه بمعظـم عسكره، ووعـد الديـوان بكل جميـل، وعـدت إليه خـامس ربيـع الآوّل سنـة ست وثمانين، وسبقـت العساكـر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير،فسر بذلك.

وقـال العماد في كتـاب الفتـح: ونمى الخبر بـوصـول ملـك الألمان إلى قسطنطينية في ثـلاثمائة ألف مقـاتل على قصـد العبور إلى بـلاد الإسلام، وقطـع بلد الـروم والأرمـن إلى الشام، وفيهـم ستـون ألـف فارس مـدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكـل شيطان لربه كنود، وكتب صـاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهـل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البـلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن النـاهضين إلى طريقهـم في عشرة، وأبرق في كتـابـه وأرعد، وأبـدع في خطابـه وأبعد، ولاشك أنـه إلى جنسه النجـس مائل، وبملاءة أهـل ملته قائل، ولما وصــل هذا النبـأ، قيل إنـه عظيم، وورد هـذا الخبر، وخيل إنـه أليم، كـاد الناس يضطربـون على أنهم يصدّقـون ويكذبون ، ومـن طرف

كـل حبل مـن الـرأي يجذبون، وقلنـا: إن وضح هـذا الخطـر، وصح هـذا الخبر، فالمسلمـون يقومون لنـا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يـرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوّة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسـال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، ونـدبنـا رسـل الاستنصـار، وبعثنـا كتـب الاستنفـار الى جميـع الأمصـار والأقطار، وقلنا مـاهذه المـرّة الى مرّه، لايسيغها إلاّ كل مـرّ أبيّ، وماهذه الكرةِمثلِ كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الـدين بن شداد يوسف ابن رافِع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديـوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقـه رسالـة، وأودعه إليه مقـالة، فسـار ووصل إلى حلـب والقاضي ضياءالدين بـن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عـاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الـرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الـدين إليّ، ثم اجتمع بـالسلطان وندّمه على مـاقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قـد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مـع السلطان أمـراً ، وعاد على النجـب إلى بغـداد، وصادف بها القـاضي بهاء الديـن بن شداد، فلـم يسفر أمر سفارتـه عن سداد، وقيـل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، ونندبه فيما نتخيره.

وقـال في كتاب البرق: وصـل الخبر بخروج ملـك الألمان من بـلاده في مائتـي ألف دارع، وفي راجل في دبيـب رجل الـدبا، في عدد رمـل اللوا، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهـور حتـى وصلـوا قسطنطينيـة، وكـان ملـك الـروم يكتـب إلينـا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديـارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقـدر على منعهم، فصـدّعنهم الأزواد، وحـرمهم الإسعـاد، وعبروا الخليـج وقـد كثـرت أمـدادهـم، وقلـت أزوادهـم، ولما وصلـوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والآجام والوهود والآكام، تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتا، واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:

يـامنقـذ القـدس مـن أيـدي جبـابـرة
قـد أقسمـوا بـذراع الـرب تـدخلـه

فـاكـذبـوا كـذبهم في وصـف ربهم
وصـدّق الـوعـد مـأمـونـا تحوّلـه

أمـا رأيـت ابـن أيـوب استقـل بها
يعيـي الـزمـان وأهليـه تحملـه

هـاج الفـرنـج وقـد خـار والفتكتـه
فـاستنفـروا كـل مـرهـوب تغلغلـه

لما سبـى القـدس قـالـوا: كيـف نتركهـا
والـرب في حفـر منهـا تمثلـه

فكـم مليـك لهم شـق البحـار سرى
لينصروا القبر والأقـدار تخذلـه

وكـــم تـــرحـــل منهـــم فيلـــق بفـــلا
إلى الخوامـــع ألقـــاه تـــرحلـــبـــه
استصرخـــوا الأهـــل والعـــدوى تمزقهـــم
واستكثـــروا المال والهيجـــا تنفلـــه
هـــم الفـــراش لهيـــب الحرب تصرعـــه
كلما الـــج صـــد مـــا جـــل مقتلـــه
سيـــف امـــام فلسطين يـــرى امـمـــا
خلـــف البحـــار لقـــد أمهـــاه صيقلـــه
كـــم أعـــدّوا وكـــم قـــد فـــل جمعهـــم
مـــن غير ضرب ولا طعـــن يـــزيلـــه
وإنما اسـم صـــلاح الـــديـــن يـــذكـــر في
جيـــش العـــدّو فيسبيهـــم تخيلـــه

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكموا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقى الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصما، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عثر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتدّ سرا سنقر يعدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الاوّل تسلم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال:واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فما زال يقوّي عكا بتسيير الغلات والقوّات إليها في المراكب، وملأها بالذخائر والأسلحة والكماة، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها،وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجا من خشب، وهوادي من قصب، ويدرّجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: ماهذا الولع، بما لاينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفت الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء،وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان،فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدّو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلاّ ويعرضهم ويسير بهم إلى العدّو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلاّ جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأوّل، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ:« من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدّو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه،وسار به حتى أوقفه على العدّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف، واللطائف مالا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدْم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ماتقدّم قال: وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا صمموا على الاقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يقربونها، ولو ذراعا على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم الخندق، وجاء عوّام من عكا فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق أخر مع الأبراج، فأشفى البلد وبقي له رمق ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نفط فما أثرت، ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الأوّل بالأبراج إلاّ وقد اشتعلت، والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مولعا، ولتحصيل عقاقيرها متتبعا، وكل من عرفه عذله وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النفط من صناعته، ولكن الله وفقه لسعادته، فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق البرج والله ولي التوفيق، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل قد خاروا وحاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه، ومايدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأوّل قدور نفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه وروّاه، ثم رماه بقدر محرقه، وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النارعلى طبقاتها، فأضرم على أهل

السعير سعيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر ، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بهادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال ، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطـان في قتالهم مـن خارج، وسـار الناس على جـانب البحـر تقويـة للأسطول وإينـاسا له ولرجـاله التقى الاسطولان في البحـر، والعسكران في البر واضطـرمت نـار الحرب واستعـرت، وباع كـل فريـق روحـه براحتـه الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منـه شيني وقتـل من بـه،ونهب جميـع مافيـه، وظفـر من العـدّو بمركـب أيضا، كـان واصلا مـن قسطنطينية، ودخـل الاسطول المنصـور إلى عكا، وكان قـد صحبه مراكـب من الساحل فيهـا مير وذخائر، وطابـت قلوب أهل البلد بـذلك، وانشرحت صدورهـم، فـان الضائقة كانـت قد أخذت منهـم، واتصل القتـال بين العسكرين من خـارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كـل فريق إلى خيمه، وقـد قتل من عدّو الله وجـرح في ذلك اليوم خلق عظيـم، فإنهم قاتلوا في ثلاثـة مواضع، فإن أهـل البلد اشتدّوا في قتـالهم ليشغلـوهـم عـن الأسطـول أيضـا، والاسطـولان مقـابـلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنـا منهم مـدّة مقامنـا على عكا سنتين أكثـر من ستين ألـف، ورزأنـاهم بكل حتـف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحـر، وكم جسروا وخسروا، وقتلـوا وأسروا، وهزمـوا وكسروا، وخلفهـم خلـف، ويقـوم مقام مائتهـم ألـف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنـا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ماكان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذمعه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولاينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب ماناله من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني،فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب:«كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وماجرى له عند ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيما، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانما قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه،فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما ثرنا لثأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم ثم العبور، وانهم غلبوا على ذلك، ثم ان الالمانيةطلبوا من قليج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قطب الدين، فإنه كان كارها لجماعة من المقدّمين فتقدّم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق، وقد تبعهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن ومقدّمهم لافون بن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدوهم، فمنهم من خلص بعد حين بمال جزيل، ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين، ووصل مقدّم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصده، وقام لهم بالضيافات والعلوفات، وذلك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفوس، فعن للملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطة مابه من الوضر، فعرض له مرض سلك به في سقر، وقيل: لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لايخلو من هجمها من آفة، فجرى إليها، واجترأ عليها، فجذبته سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ومجت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعمره على الدروج، فتسلم مالك ملك الألمان بآله وأحماله إلى جهنم، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم إلى أخيه، وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث، وأكثرهم حملة عصيّ وركاب حمير، وكل بالأرض التي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطـاكية، وثقلت وطأتهم المفـاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلـك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكيـة لينقل إليها ماله وخزائنـه وأثقاله، فأخلاها لـه وسلمها اليه طمعا في مـاله، وأمـوال رجالـه، وكان على ماحـدسه فـإنه لم يعـد إليها، واستولى الابـرنس بـأنطاكية عليهـا، وجاءت فرقـة منهم ليـلا إلى حصن بغـراس، وظنـوا أنـه في أيـدي أجناسهـم الأنجـاس، ففتـح والي القلعـة البـاب، وأخـرج الاصحاب، وتسلـم تلـك الأمـوال بأحمالها والصنـاديـق بأقفالها، وأسر منهـم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل جلـب وجندها إلى طرقهم، وفرقـوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغيـاض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهـم إغاثة، فهانت الألمانيةبعد تلك المهابـة في الأنفس، وباعـوهم في الاسواق بـالثمن الأبخس، ولما تكـامل وصول السالمين إلى أنطاكيـة، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلـة واللاذقية، فخرج عليهـم رجالها فقتلـوا منهم وأسروا، فما وصلـوا إلى طرابلـس إلاّ في خف ولم يـسـف ممن جاء مـع الملك غير ألف، وجـاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقـوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكـا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبـن الملك عن السير على الطريـق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفـريق، فركب البحر في عدد يسير لايـزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنـف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقـال القاضي ابـن شدّاد: مـرض ولد ملـك الألمان الذي قـام مقامـه مرضـاًعظيماً، وأقام بمـوضع يسمـى التينات مـن بلاد لافـون، وأقام معـه خمسة وعشرون فـارساً وأربعون داوياً، وجهـز عسكره نحو أنطاكيـة حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فـرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغـراس ومقدّمها كند عظيـم عندهـم، وان عسكر بغـراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها،ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه،ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال،ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما،ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ مايليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ مايليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلاّ أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلهما إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية:« قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحّرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:« ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدّو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدّرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم بابا هم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة،فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدّو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدّو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدهاوالثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام ، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: ياأبطال الموحدين هذا عدّو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشيّ خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلاّ ساعة حتى رأينا(القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدّو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخا، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلاّ النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم،فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلاّ وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدّو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلاّ من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولماعرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروّا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة، وحكي من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستنا في جدده وقتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى اولئك الصرعى بتلك المروج،وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه ا لنصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بما جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ،وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه ، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

مـن الشدة، ونقـص العدة مـا أضعفه وأوهـاه، وأنه لايصـل إلى بلادكـم فينتفـع بنفسه أو ينفـع، ويكون مصرعـه هنـاك ولايرجـع، ويموت بما بـه كـاده، وأنـه قـد بلـغ في أذاه اجتهاده، ويطلـب رسـولاً يـدرك بـه مـن السلطان سـولا، فأجيـب في ذلك إلى مراده، ووقـع الاعتداد بما ذكـره من اعتداده.

وقـال القاضي ابـن شدّاد: كـان بين السلطـان وبين ملك قسطنطينيـة مراسلـه ومكاتبـه، وكان وصـل منه رسـول الى الباب الكـريم السلطـاني بمـرج عيون سنـة خمس وثمانين في رجـب في جـواب رسول كـان أنفـذه السلطان بعد تقريـر القواعد، واقامة قانون الخطبـة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسـول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكـرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعـاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينيـة يومـا عظيما من أيـام الاسلام، وشـاهده جمع كبير مـن التجـار، ورقـي الخطيب المنبر واجتمـع إليـه المسلمـون المقيمـون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسيـة، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فـأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الـرسالة ومعه ترجمان يترجـم عنه وهـو شيخ مـن أحسن مـايفرض أن يكـون من صـور المشايـخ، وعليه زيهم الـذي يختص بهم، ومعـه كتاب وتـذكرة والكتـاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاتـه إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقـد عبر العماد عن معـانيـه فأغنـى عـن ذلك، ثـم قـال: وكان مـن حديـث ملك الالمان أنـه بعد أن استقـرت قدمـه في أنطاكيـة أخذهـامن صاحبهـا وتحكم فيـه، وكان بين يـديه فيهـا ينفذ أوامـره، وكان لـه أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعـة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحـو عكا في جيوشـه، وجموعه على طـريق اللاذقيـة حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان، وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مـراكـب، وسار البـاقـون إلى صـور، ثـم وصل إلى عكـا في نفـر يسير في سادس رمضـان، وكان لقدومه وقـع عظيم عندهم، ووصـل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثـابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عـن حراسة عكا والحمايـة لها، ومراصدة العسكر النـازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهـم في كل وقت، مفوّضا أمـره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجـه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره مـن نفذ إليه من الفقـراء والفقهـاء والمشايـخ والأدبـاء، ولقـد كنت إذا بلغنـي هـذا الخبر تأثـرت حتى إذا دخلت عليـه أجد عنده مـن قوّة النفس وشـدّة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسه بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزيّ الفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدّو، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا:لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نرّد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدّت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد، وكان فرجا عظيما فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد إلا قدر يكفي البلد إلي ليلة النصف من شعبان لاغير(فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها)[٩٥] لخاص ولاعام خشية الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع

مـايحتاج إليـه في الحصار، بحيـث يكفيهم ذلـك طول الشتـاء، فأقلعـت البطس الثلاث من الـديار المصرية، ولججت في البحر تتوخـى النوتية بها الريح التي تحملهـا إلى عكا، فطابت لهم الريح حتـى ساروا ووصلوا إلى عكـا ليلـة النصـف مـن شعبان، وقـد فنيـت الأزواد، ولم يبـق عنـدهـم مايطعمـون الناس في ذلـك اليوم، وخـرج عليها أسطـول العدّو يقـاتلها والعساكر الاسـلامية تشاهد ذلـك من الساحل والنـاس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمـون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضـاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقـد علم مـن شدّة القوم مـالم يعلمه غيره، وفي قلبـه مافي قلبه والله يثبتـه، ولم يزل القتال يعمل حـول البطس من كل جـانب، والله يدفع عنها والـريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت مـن الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينـا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بما فيهـا، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كـان السلطان قـد أمر نوّاب الاسكنـدرية بتجهيـز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرهـا إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بـالبلد إعـواز الأقوات، فـافكر فيما يتعجـل به الغـرض، فكتب إلى متـولي بيروت عز الدين سـامة فجهز بطسة كبيرة،مـلأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبهـا جماعة على زي الفـرنج ممسـوحي اللحـى، ممسوخـي الحلى، وأصحبهـم صلبانـا وخيل بهم رهبـانا، وكـانت هـذه البطسة مـن الفرنـج مأخـوذة، وهي بسـاحل بيروت منبـوذة، فأمـر السلطان بترميمهـا وتتميمها، فملئـت بالشحـوم واللحوم، وأربعمائة غـرارة غلة، وأحمال مـن النشاب والنفط، ورتب فيها ر جـال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبـه ببطـس العـدّو في البحـر، فشـدّوا زنـانير واستصحبـوا خنـازير، وسـاروا بها في البحر بمـراكب الفـرنج مختلطين، والى محادثتهـم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد:ووصـل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعـا، ويبدي به نفعـا، فدبـوا في راجلٍ كرجـل الدبـا، وخيل أغصت الـوهاد والـربى، وقـربوا مـن تـل العياضيـه، وعليه خيـم اليـزكية، والنـوبـة فيها للحلقـة المنصـورة الناصريـة، والعصبة الموصليـة، فثـارت إليهم، ودارت عليهـم، وركـب السلطـان، وتقـدّم إلى تـل كيسـان، ولم يـزل الحرب إلى أن جـن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قـال القـاضي: وقتل منهـم وجـرح خلـق عظيم، والسيـف يعمـل في بقيتهم وهم هـاربون حتى وصل المخيـم غروب الشمس من ذلـك اليوم وهو لايعتقـد سلامة نفسـه من شدة خـوفه، وقتل مـن المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغـداد:«قد بلي الاسلام منهم بقوم قـد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والـديار، وركبـوا اللجج ووهبوا المهـج كل ذلـك طاعـة لقسيسهم وامتثـالاً لأمر مـركيسهـم وغيرة لمتعبدهـم وحميـة لمعتقـدهم وتهالكـا على مقبرتهم، وتحرقـاً على قمامتهـم، ولايطلبـون مـع شـدّة الامـلاق مـالاً، ولايجدون مع كثـرة المشاق ملالا، بل يتسـاقطون على نيران الظبى تسـاقط الفـراش، ويقتحمـون الـردى متـدرّعين الصبر متثبتـي الجأش، حتـى خرجـت النساء مـن بلادهـن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحـر والبر متجهـزات، وكانـت منهـن ملكة استتبعـت خمسمائة مقـاتـل، والتزمـت بمؤنتهـم فصودف مركبهـابقرب الاسكندريـة فأخذت بـرجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهـن ملكة وصلت مـع ملك الالمان، وذوات المقانـع من الفرنـج مقنعات مقـارعات، يحملـن إلى الطعان الطـوارق والقنطاريـات، وقد وجد في الـوقعات التي جرت عـدّة منهن بين القتلى، وماعرفـن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لايتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولامطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم:إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولد، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولايجتمعون، ويتسللون ولايرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلدمنه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدّور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، واعدّوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدّو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور،

وتواتـرت حجارتها حتـى أثرت فيـه أثرا بينا، وخيـف من غـائلته فـأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحـرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلـة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيـه، واجتهد العدّو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلـك، وهبت ريح شديـدة فاشتعل اشتعـالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فـأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقـدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتـال في إطفائهما، وكـان يومـاً عظيماً اشتد فيـه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال:«ومن نوادر هـذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر مـاجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطـه ليلاً على غـرة من العـدّو، وكان يغـوص ويخرج من الجانب الآخر مـن مراكب العدّو، وكـان ذات ليلة شد على وسطه ثـلاثة أكياس فيهـا ألف دينار، وكتبا للعسكـر، وعام في البحر فجرى عليـه أمر أهلكه، وأبطـأ خبره عنا، وكانـت عادته إذا دخل البلـد طار طائر عـرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحـر في البلد وإذا البحـر قد قـذف إليهم ميتـا غريقـا فافتقـدوه فوجـدوه عيسى العـوام، ووجدوا على وسطـه الذهـب، ومشمع الكتـب، وكان الذهب نفقة للمجاهديـن، فمارؤي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقـدر الله له أداءهـا بعـد وفـاته إلا هـذا الـرجـل، وكان ذلـك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى—ولم يسمـع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانـت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حـاله وهي مجهلة محتملة، فـوجد في عكا ميتا قـد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي:وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أ نهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من الميرِ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلاّ من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العماد: وعنـد مينا عكا في البحر بـرج يعرف ببرج الذبـان، وهو في حراسـة المينا عظيـم الشان، وهـو منفرد عـن البلد محمـي بالـرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصـاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطـس كبار جهزوها، ومـراكب عظام الآلات أبرزوهـا، ومكر مكـروه، ودبردبـروه، وأحـد تلك المراكـب قـد ركب بـرج فـوق صاريـه، لايطاوله طود ولا يبـاريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطـب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الـذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفـاته، ورميـت فيه النار فاحترق واحترق مـن الأخشاب والستـائر مابـه التصق، واستـولت النار على مـواقف المقاتلة فتبـاعدوا عنها، ولم يقـربوا منهـا، وأوقـدت بطسة الحطـب التـي مـن ورائهـا، وعادت على الفـرنـج فـالتهبـوا، وحمى عليهـم الحديـد فاضطـرمـوا واضطـربـوا، وانقلبـت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهـم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلـم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتـح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتـاب الى سيف الاسلام باليمـن:« ومن حديث هـذا البرج أنه يحيط به البحـر من جوانبه، وهو قفـل مينا الثغر على مراكبـه، وقد رفعناه وأعليناه، وبـالعدد والـرجال قـويناه فعمـدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيهـا مصقالا كـأنه سلم، وهو في مقـدمها مركـب مقدم، وقد جعلوهـا بحيث إذا قرب إلى البرج ركـب رأس السلم على شراريفه، وصعـد الرجـال إليه في تجاويفـه، وتعبوا في ذلـك أيامـا، وأشبعوه تـوثيقا واحكـاما، حتـى إذا التصق بـالبرج التصقت بـه قواريـر النفط، وتـوالت امطـار البلايـا من الجروخ والمنجنيقات على أولئـك الرهط، ثـم عمل الفرنـج برجاً عـاليا في أكبر مركب وحشـوه بالحطب، وعملوا على رأس صـاريه مكاناً يقعـد فيه الزراق، وقـدموه إلى برج الذبـان، وسلطوا على جوانبه النيران، فـأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه الناروالنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل[٩٦] فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت[٩٧] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكماة والرماة وسحبوها وقربوهـا فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبـلاء الأفظع، وقالوا: مـافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبـوا على صوبها مجانيق، ورموا بـالحجارة الثقيلة ذلك النيـق، فأبعدت رجالها مـن حواليها ثم رموها بحزم الحطـب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوهـا بالنار فباتوا يطفئـونها بالخل والخمـر وقـد تمكنـت النار مـن أضـلاعهـا، ثم خسفهـا المنجنيـق وخرج مـن بالثغـر فقطعـوا رأس الكبش، واستخـرجوا مـاتحت الرمـاد من العـدد بالنبش، وقـدر مانهب مـن الحديد بمائة قنطـار، وعلم الفرنـج أن أعمالهم حبطت، وآمـالهم هبطت، وكـان ذلك في ثـالث عشر رمضـان، وفيه قـدم الظـاهر صـاحب حلـب والأمجد صـاحب بعلبـك، وسابـق الدين عثمان صـاحب شيزر، وعزالـدين بن المقـدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل،وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وماأغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان(٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها ، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجييت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه: « لاشك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجراإلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وماأنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بدره التم بسراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاما، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولايةبمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين،

فطلب من عمه تفويض كل ماوراء ا لفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضجروا من الاقامة، وأماعماد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلا، فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدّو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: « إنك أنت قصدت الإنتماء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»،وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلاّ في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلاّ بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتها وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتها، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقا، ولايكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدّو، فثوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشئية الله يعظم موقعها، (والعاقبة للتقوى) (١٠٠) (ولينصرن الله من ينصره) (١٠١) والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروّح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلوب، وقد وقفت في طرقنا الذنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى مايستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال:« وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وصل الخبر بانها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي باقية، كأن الريح في بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع في هذه الأيام فما واسى المسلمين، ومن نام ملء عينه، فما هو من أخوة المؤمنين، والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدّو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

مـايحدث مـن النعمـة بـالفرج المسير فيهـا، وآكـد هـذه الحال في نفـس المملوك وقـوفه على كتـب أصحابنـا من عكـا، وقد وقـع لهم هذا الـواقع الذي وقع للمملـوك من خوفهم عليهـا، واستبعادهم دخولها ،فـالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كـأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحـانه أن لايكلنـا إلى أنفسنـا فنعجـز، ولا إلى الناس فنضيـع، ومجهـود أهـل الأرض قـد انتهى وبقـي مـايفعلـه الله، والخير منتظر منـه، والفـرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيـام، والله يامولانـا ما تنجـز شيء من هذه الأمـور إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجـارة وينبه النوام، وتبح الأصوات مـن التذكـار، وتحفـى الأقـلام من الكتـابـة، ويخضـع لمن يلزمـه الشغـل كالخضوع لمن لايلـزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيتـه في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقـــد كـــــانــــوااذاعـــــدواقليـــــلا
فقـــد صـــاروا أقـــل مـــن القليـــــل »

ومن كتاب آخـر:« وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصـار لعكا، ومـا أرجـف بـه مـن النجـدتين الفـرنجيتين الـواصلـة والبعيـدة وافتراق العسـاكـرفي هذا الـوقـت للضرورة، والتماس العسكـر الشرقي الـدستـور للضجر، وحـاجة المولى مـن الانفاق إلى مـالايسعه التـدبير، ويضيق عنـه الامكان، ومطـالبة الغني بالـزيادة مع الغنـى والضعيف بأكثر ممـا يحتاج إليـه وضيـاع فرصـة، واختـلاف رأي بين المتشـاور من الجماعـة، وجـود الألسنة بالآراء، وبخـل الأيدي بالمعونة، وانفـراد المولى بالتعب، واشتراك النـاس في الراحـة، ومابتلي بـه المسلمـون من مـرض أظهروه ليكـون لهم عذراً في القعود، وكتمـه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنـا ضعف النفوس، فهـذه الأمـور وإن كـانت شـدائد، وزائدات على العـوائد، فقـد ألهم الله مولانـا فيها سعة الصـدر، وحسن الصبر، ليشعـره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجـر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرهـا، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا
يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه المماليك قبل المولى لابد منه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) [١٠٢] وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) [١٠٣] ، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لاتجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ماابتلى إلاّ بذنب».

ومن كتاب آخر:«يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لايريد العوض منك إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان: مابين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا ، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنـــا معشر الخدام مـــا بـــك مـــن أذى
وإن أشفقـــوا ممـــا أقـــول فبـــي وحـــدي»

ومن كتاب آخر:« إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعدّونا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره، لفعل لنا مالانقدر عليه إلا به فلا يستخصم أحد إلاّ عمله ولا يلم إلاّنفسه، ولايرج إلاّربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولانأمن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال:«ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحيية، وسكون حركاته الموزونة، لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيمانا صبّره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيمانا أسلى عن ذلك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخـر:«وعسكرنا لايشكو والحمد لله منـه خوراً، وإنما يشكو منه ضجـراً، والقوى البشريـة لابد أن يكـون لها حد، والاقـدار الالهية لها قصد، وكـل ذي قصد خـادم قصدها، وواقـف عند حـدها، وإنما يـذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقـت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع مـن أبطاله قال الله تعالى: (فاعـف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانـا أليس الله تعالى اطلع على قلـوب أهل الأرض فلـم يـؤهـل، ولم يستصلـح، .ولم يختر ولم يسهـل، ولم يستعمـل ولم يستخـدم في إقامـة دينـه وإعلاء كلمتـة وتمهيد سلطـانـه، وحماية شعـاره وحفظ قبلة موحـديه إلاّ أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبـوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومـن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامـك، وكسلهم ونشطـك، وقبضهم وبسطـك، وحبب الـدنيا إليهـم، وبغضها إليك، وصعبهـا عليهم وهونها عليك، وأمسـك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمـد سيوفهـم وجرد سيفـك، وأشقاهـم وأنعم عليـك، وثبطهم وسيرك، ولـو أرادوا الخروج لأعدّوا لـه عـدة (ولكـن كره الله انبعـاثهـم فثبطهم وقيل اقعدوا مـع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهـم من الأولى انه لما اجتمعـت كلمة الكفر من أقطـار الأرض،وأطراف الدنيـا، ومغرب الشمس ومـزخر البحر مـاتأخر منهـم متأخـر، ولا استبعد المسافـة بينك وبينهم مستبعـد، وخرجوا من ذات أنفسهـم الخبيثة لاأموال تنفـق فيهم، ولا ملوك تحكـم عليهم، ولاعصا تسـوقهم، ولاسيف يـزعجهم (مهطعين إلى الـداع) (١٠٦) سـاعين في أثـر السـاعـي (وهـم مـن كـل حـدب ينسلون)(١٠٧)ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله:

ولسـت بملـك هـازم لنظيره
ولكنـك الاسـلام للشرك هـازم

هـذا: وليس لـك من المسلمين كـافة مسـاعدة،إلا بـدعوة، ولامجاهـد معـك إلا بلسانـه، ولا خـارج معـك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يـديـك إلا بالاجـرة، ولا قانـع منك إلا بـزيادة تشترى منهـم الخطوات شبرا بـذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى
وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمـع بأن مولانـا عز نصره على مـايعهده من سعـة صدره، أسر منه بها يسمعـه من بشائر نصره ويـاليتني كنـت معهم، وماذا كـانت تصنـع الأيام إمـا شيبا مـن مشـاهدة الحروب، فقـد شبنا والله مـن سماع الأخبـار، أوغرمـا يمكـن خلفـه من الـوفـر، فقد غـرمنـا في بعـد مولانـا مالاخلـف له مـن العمر، أومـرض جسم فخيره مـاكان الطبيـب حاضره، ولقد مرضنا أشدّ المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخـر:« المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسـلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بها يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علـم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبـه، واستطار لبـه، وضعفت نفسـه، فيحسب المولى مـن جهاده تفقـد جسمه، وآلات مطعمـه، وترويـح خطراتـه،فقد بلـغ من حملـه على نفسه مايخشى على مـولانا الإثم فيه، وإنها نتجشم كل مشقـة لتسلم منه، ونحـن في ضرّ قد مسنـا، ولانرجـو لكشفـه إلا من ابتلى بـه، وفي طوفـان فتنه، (ولاعـاصم اليـوم من أمـر الله إلا من رحـم) (١٠٩) ولنا ذنـوب قد سدّت طريـق دعائنا، فنحن أولى بـأن نلوم أنفسنا، ولله قدر لاسـلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكـم منها ومـن كل كـرب) (١١٠) وقـد جمع العدّو لنـا، وقيل لنـا اخشوه فقلنـا (حسبنا الله ونعم الـوكيل) (١١١) متنجزيـن بذلك مـوعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجـو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنـا إلا الاستعانـة بـالله فما دلنا الله في الشـدائد إلاّ على الـدعاء لـه،وعلى طروق بـاب كرمـه، وعلى التضرع إليه (فلـولا اذ جاءهـم بأسنـا تضرعوا ولكـن قست قلـوبهم) (١١٢) ونعـوذ بالله مـن القسـوة، ومـن القنوط مـن الرحمة، ومـن اليأس مـن الفرج، فـانه لاييـأس منه إلا مسلـوب الرشـد، مطرود عـن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلـة إلا بترك الحيلة، بل قصـد من تمضي أقداره بـلا حيلة، سبحانه وتعـالى إن علم الله من جند مـولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزاجه وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه، (وإن كان كبر عليك اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) [١١٣] والمولى أولى بهذا البيت

لابطر إن تتابعت نعم
وصابر في البلاء محتسب

قيل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشدّة أعاذه الله منها، ولايجد راحة الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولايقطع الظهور التي لاتشتدّ إلاّ به، ولايضيق صدور الا تنفرج إلاّ منه، وماشرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلاضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم مولانا المباشرة أنه لايدبر الدهر إلاّ رب الدهر، ولاينفذ الأمر إلاّ بصاحب الأمر، وأنه لايقلّ الهم إن كثر الفكر.

قد قلت للرجل المقسم أمره
فوض إليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أوبلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيها: ياخيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس،وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما ركبت، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ماستعمل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عرف ماجرى في سير الأوّلين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حرض نبيه ﷺعلى أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وماتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر،وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لايحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ماليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وكفى خطبة(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافى، وليرض عن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم،(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦)".

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها» فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك،وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت»٠

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايحبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضه، ومن القعود ، مجالسهم مخففة أومطولة ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ماصيغته وماموقعه، وهل هي السنن الدينية ، أو العوائد الملوكية ، ولايلقه الا بما يحبه، ولا يخاطبه الا بما يسره ، والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم لتعلم.ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وماأزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعةفيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفار من مصر، فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدّمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ،و تلك على الاسلام منة الله العظمى إلى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها،ومنعتها وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها ، وإنه لايمضي يوم إلاّعن قوة تتجدّد ومبرة تصل، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدوّ، وحصرنا نحن العدّو،فما تمكن من قتال الثغر ، ولاتمكن من قتالنا ، وخندق على نفسه عدة خنادق، فماتمكنا من قتاله ، وقدّم الى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرّتين الى عسكرنا فكسر العدو الكثير أقله، فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقدم على غرّة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور المكسور، وتذكر مادخل

الثغـر من اسـاطيلنـا ثـلاث مرات ، واحـراقهـا لمراكبهـم ، وهي الاكثـر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمـر العدو مـع ذلـك قد تطـاول، وخطبـه قـد تمادى ، ونجدتـه تتواصل، ومنهـا ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأمـوال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكـرنا لو أدركته لما استـدرك ، ولولا سبقه لها بالـدخول إلى انطاكيـة لتلف وهلك ، وتـذكر أن اللـه قصم طاغيـة الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيـا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لـو أرسل الله عليه أسطولا قويـا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخـذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فـأخذنا بيـد الله تعـالى التي بها النصر، فـإن كانـت الاسـاطيل بـالجانب المغـربي ميسرة ، والعـدة منها متـوفرة ، والـرجال في اللقـاء فارهـة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنـت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانـت دون الاسطول مـوانع إمـا من قلـة عده، أومـن شغل هنـاك بمهمة أو بمباشرة عدّو إما تحصن منه العـوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة مـا طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انـواعها محصورة ، تكون تـارة بالـرجال ، وتارة بـالمال ، وما رأينا أهـلا لخطابنـا ، ولا كفؤ ا لانجادنـا ، ومحقوقا بـدعوتنا ، ولا ملبيـا بنصرتنا إلا ذلك الجنـاب ، فلم ندعه إلا لـواجب عليه ، والى ما هو مستقـل به ومطيق له ، فقـد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نـارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العـدوة القصوى شجـرتها فينـال من في العـدوة الدنيـا جنـاها، فـلا تـرضـى همتـه أن يعين الكفـر الكفـر، ولا يعين الاسـلام الاسـلام ، ومـا اختص بـالاستعانة إلا لأن العـدّو جاره، والجار أقـدر على الجار ، وأهل الجنـة أولى بقتال أهـل النار، ولانـه بحـر ، والنجدة بحـرية، ولا غـرو ان يجيش البحـار البحار، وإن سئـل عن المملـوكين بوز بـا وقراقـوش وذكر مافعـلا في اطراف المغرب بمـن معهما من نفايات الـرجال الذيـن نفتهم مقـامات القتـال ، فيعلمهـم ان المملوكين ومـن معهما ليسـوا من وجـوه

المماليك والأمراء ، ولا مـن المعدودين في الطواشيـةوالأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفـاف أمثالهما ، والعـادة جارية أن العسـاكر إذا طـالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليهـا، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هـذان المملوكان ممن إذا غـاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقـدّر في مثلهماأنه ممـن يستطيع نكـاية ، ولا يـأتي بما يوجـب شكوى من جناية ، ومعاذ اللـه أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصـلاح ما استطعت ، وان سئل عـن النوبة المصرية ومـا فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلـوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شـديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعـاقب الجيش بل أعيـان المفسدين ، فقوبلـوا بمايجب، وكانوا دعاة كفـر وضلال ومحاربين للّه بما سعوا في الارض مـن فساد، فأمـا بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنـه، وأما الهديـة المسيرة على يد الامير فتفصيلهـا يرد في كتـاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيـف الدولة، أدام اللّه علوه، مقـرونـا بالهديـة المذكـورة ، ومـع قـرب الشتـاء فلم يبـق الا الاستخـارة والتسمية ، ومبـادرة الوقـت قبل أن يغلـق البحر انفتـاح الأشتية ، واللّـه سبحـانه يـوفق الأمير ، ويسهـل سبيله ، ويهدي دليلـه، ويكلأه بعينـه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغـه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء اللّه تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقـوى الطاهر، ومستقرّ حـزب اللّه الظاهر مـن المغرب أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف ين أيوب

أما بعـد : فالحمد للـه الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بـالبرية ، الحفى بـالحنفية ، الـذي استعمل عليها مـن استعمر بـه الارض ، وأغنى من أهلهـا من سـأله القـرض، وأجزل أجـر من أجـرى على يده النـافلة والفـرض، وزان سماء الملـة بـدراري الذراري التـي بعضهـا مـن بعـض، وصلى اللّه على سيدنـا محمد الذي أنزل عليـه كتابا فيه الشفـاء والتبيان ، وبنى الاسـلام بأمتـه التي شبههـا صاحبهـا بالبنيـان ، وعلى آله وصحبـه الـذين اصطفـاهم وطهـرهم ، فنصروه وظـاهـروا رسولـه صلى الله عليـه وسلم فنصرهم وأظهـرهم ، وييسر بهم السبيل ، ثم السبيـل يسرهم ، وان اللـه بهم (لذو فضـل على النـاس ولكـن اكثرهـم)(١١٧) (ربنـا اغفر لنـا ولاخواننا الـذين سبقونا بالايمان ولاتجعـل في قلوبنا غلا للذيـن امنوا ربنا انك رؤوف رحيم)(١١٨) وهذه التحيـة الطيبة الكريمـة الصيبة، الـواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الـورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على دار الملـك ومـدار النســك ، وجـل الجلالـة ، وأصـل الاصـالـة ورأس الريـاسة، ونفس النفـاسة ، وحكـم الحكم ، وعلـم العلم ، وقائم الـدين وقيمه، ومقدّم الاسـلام ومقدّمه، ومقتضى دين الـدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحدين ، أدام اللّه له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرةوبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلا) [١١٩] ،تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس ، ومافتح اللّه للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)[١٢٠] ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدّو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجيء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف اللّه فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدّو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدّو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل مايحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخندقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها،فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدّو محاصراً للثغرمحصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ،متوعرا فيها محتجزاً عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن للّه المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول اللّه ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعاملة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادهـا، لايزال في سبيل اللّه غاديا ورائحـا ، ومـواجهـا ومكـافحا ، وممـا سيـا ومصـابحـا، يجوز لجة البحـر بالمجـاهديـن ملوكا على الأسرة ، وغـزاة تصافح وجـوهها السيـوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافـرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) [١٢١] ولولاه لأخمد شرارة كل زناد. كان المتوقع من تلـك الدولة العالية ، والعزمة الغاديـة مع القدرة الوافية، والهمة المهـدية الهادية، أن يمـد غرب الاسلام المسلمين بـأكثر مما امـد به غرب الكفـار الكافـرين ، فيملأهـا عليهم جواري كـالاعلام ، ومـدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بـالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفـار آجالا ، وتردنـا إما جملة وإمـا أرسالا ، مسوّمـة تمدها ملائكـة مسوّمة ومعلمـة، تقدم حيازيمهـا إقدام حيزوم تحت أصحـابه، وإنما هي منه عزمه، كانـت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمـة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيـة ، فقد تحفل السحاب ، ولاتمطر إلى أن تحركها أيـدي الرياح ، وقـد ينزل النصرة فلا تظهـر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح،وسير لحضـور مجلسه الأطهر ومحله الأنـور ، الأمير الاجل المجـاهد الأمين الأصيـل، شمس الـديـن نور الاسـلام والمسلمين، سفير الملـوك والسـلاطين ، أبـو الحزم عبـد الـرحمن بـن منقـذ ، كتـب اللّـه سلامته،وأحسـن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا مـن هو اهلها، ولا حمل الوديعـة إلا منّ هـوبحلها،ولا بعـث لنهج الصلـة إلا من هـو مفتاحهـا ، ولأداء الامانة إلا مـن هو أ هلها ، ومهما استوضـح منه، وسئل عنه، فـإنه على نفسه بصيرة ، ومـن البيان ذو ذخيرة، وفي العـربية ذو بيـت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على ا ن تلك الجلالـة ربما ذعرت البيان فأخلف، وماأجـدره بأن يصادف بسطـة على بساطـة، ونظرا يأذن لـه في القول على اختصاره، وتوسطه وافـراطه، فكل هو به واف، وكل هـو للفهم الكريم كاف، واللّـه تعالى يجعل هـذه العزمةمنـا في استنهاض العـزمة منه بـالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ماوفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخطرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة اللّه وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء اللّه تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامس والعشرين من شوال ،وأقام بها إلى ذي القعدة ،وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته،وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
ووراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومي الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما
أنت المقدّم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما النعماه ساحل

إلى معـــدن التقـــوى إلى كعبـــة الهدى
إلى مـــن سمـــت بـــالـــذكـــر منـــه الأوائل
إليـــــك أميرا المسلمين ولم تـــــزل
إلى بـــابـــك المأمـــول تـــزجـــى الـــرواحـــل
قطعـــت اليـــك البر والبحـــر مـــوقنـــا
بـــأني بـــذاك القطـــع بـــالنجـــح كـــافـــل
فما راعنــــي مــــن وجبــــة البر رائع
ولا هـــالنـــي مـــن زاخـــر البحـــر هـــائل
ومـــن كـــان غـــايـــات المعـــالي طـــلابـــه
يهون عليـــــه كـــــل أمـــــر يحاول
رجـــوت بقصـــديـــك العلى فبلغتهـــا
وأدنـــى عطـــايـــاك العلى والفضـــائل
فـــلازلـــت للعليـــاء والجود ثـــانيـــا
تبلغـــك الأيـــام مـــا أنـــت آمـــل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ماوجدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمـــري في التغـــرّب والنـــوى
وأفنـــى ارتحالي طـــارفي وتـــلادي
وأخلقـــت الايـــام بـــرد شبيبتـــي
وأصلـــد مـــن وقـــع الخطـــوب زنـــادي
وأشغلنـــي الحرص الموكـــل في الـــورى
عـــن العمـــل المنجـــي ليـــوم معـــادي
فـــلا راحـــة الأخـــرى تيقنـــت نيلهـــا
ولا أنـــا في الـــدنيـــا بلغـــت مـــرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميـــص دعـــاني إلى احـــــــ
ـــتمال الـــرثـــاثـــة منـــه العـــدم

أقطـــــب وجهـــــي لـــــه كلما
تهلـــل لي ضـــاحكـــاً وابتســم

ومن كتاب فـاضلي الى بعض اخوانه :« وأما الاخبار المغـربية وإخلال جـانبهـا ، وضعـف مطلـوبها وطالبهـا فـإذا نجـزت الظلماء الى المغـرب فبحق، كما ان الانوار النـاصرية قد تناصرت في الشرق ، فاللـه يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن مـن مؤمنها حكم عدالته ومن كـافـرهـا سيـف فتكته ، واللـه يجزيها الخير عـن نيتهـا في الخير، ويكتـب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بـأن الرسالة المغربية لم تكـن برأي الفـاضـل ، ولاهو مختـار لها.صـورتـه:«المملوك يقبـل الارض بالمقام العـالي المولوي الملكي الناصري ، جعـل له الله في الدنيـا والآخرة المقام العـالي، وأبقى دولتـه التي هـي الايام بـالحقيقة والايـام قبلها هـي الليـالي ، وينهـي ان الظـاهـر ان المملـوك عنـد المولى ليس مـن أ هـل الاتهام،وان له ولله الحمد اثارا في دولتـه تشهد بها الايام، واثـار السيوف طـاحت وبقيـت اثـار الاقـلام،والرسـالـة المغـربية ليـس المملـوك مشيرا بتركها،ولا كـارها لسفر رسـولها، ولا مستبعداً مصلحـة قريبة منهـا، لكن على وجهها ، وقـد نجزت الهدية المغربيـة على ما أمر به، وكتـب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصـف فوق العادة ، وبما لايمكن مخاطبة مخلوق بـأكثر منـه،وعند وصـول الامير نجم الـدين مـن المخيم المنصـور فاوضه المملـوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بما وقـع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الـذين أفاضوا في هذا الحديث وأشـاروا به مـاقالـوه نقلا ، ولا احـاطوا بـه قياسـا ، ولا عرفـوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيـه أكبرأولاد عبد المؤمـن وولي عهـده بـالامير الأصيل النجـار، الجسيـم الفخار ، وعـادت الاجوبة الى ابن رزيـك وهو وزير سلطـان مصر الذي

اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، وماهو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لايستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه، وان الكتاب لايأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وان السلطان عزنصره رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لايشير الا به ، وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه اللّه من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لاينصره اللّه ولا شوكة فيه، ولايحل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته، فتفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار ، بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الأحوال، فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده،فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره ، ومايفوت وقت وإلى أن أنجز أمر المركب ، وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ماكتبه،ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام اللـه غنى مولانا بالفقر الى ربه، واذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد

الأجل الملك الصالـح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقـاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملـوك ، والمؤمن لايـذل نفسه، وقـاسم الارزاق يـوصلها وان رغم مـن جرت على يـده ، وان كان مـولانا أعـز الله نصره يقـول: أنت غافل وغائب، ومـاتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعـرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب:بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بـالله ، واذا كانت لنـا إن شاء الله أخذت خـالية ممن نطلـب الآن مواسـاته، واذا كـان المملوك مستجهـلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحـوال المملوك غائب عنهـا ، فالمفهوم مـن الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيـب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عـز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملـوك وعقبـه مستجيرون بـاللـه تعـالى ثـم بـالسلطـان عـزنصره مـن تعريضهـم لكدر الحيـاة وتوقع الخوف ومعـاداة من لايخفـى عنه خبر ولا تقال به عثـرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابـه الى المملوك ، وفيها ماهـو بخط حضرة سيدنـا الاجل عماد الدين الكـاتب الاصفهاني حـرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واماستهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كـان ولابد فـالنسخة بين يـديه، والمقصـود فيهـا من زيـادة هذه اللفظـة مايحتاج الى تعليـم ، والكتاب الذين يستقلـون بكتابة النسخة معـدومون، وقد ناب المملـوك عنهم، والكتاب الذيـن يستقلون بالتبييض مـوجودون فينوبـون عن المملـوك في التبييض ، والافكيـف يسير رسول بكتـاب من مصر بـلا خط سلطـان ، وبغير حضرته كتـب ولا بهديه سـار، وبمحضر من البغاددة والمغـاربة يعلمون أن الكتاب كتـب بمصر ، ويشهدون بما لم يـروه ومالم يقـرؤوة مـن الخطاب ، ولـو وصل مـن المولى أدام اللـه أيامـه كتا . مختوم وسير ولم يعلـم مافيه لانقطع فضـول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقـد المولى أن المملوك يعظـم القصص فما لـلألسنة والاعين

شغل إلاّالسلاطين وأفعالهم واقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى أبقاه اللّه لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ، وتعرّض لماتذم عاقبته، أويبقى على ا لخوف منه ، وذلك مما لايقتضيه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى ابقاه اللّه تحصيل تبييضها بين يديه ، وربما حصل استنارة، وامنت المكاره فيه، وغمضت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكـره أحد من أرباب السير منهـا قوله: «كتاب بغـداد كتاب بارد، غث جـامد، مـافيه مقصود لقـاصد ، ولا صلـة ولا عائد، ونحـن نطلب الـذهـب الحار فيضرب في حـديـد بـارد» ومنهـا فيما خـرّب مـن البـلاد الفرنجية المغنومة :«خراب البلاد في هـذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العـدّو واضعافـه لأنفس المسلمين ، وكان مـن يسمعه يفجـأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضـوها بالانحصـار مرة وبالهدنـة مرةأخرى وبـالقتال مرات، وبـولاة سوء لـوكان فيهـم خيرا لما عجزوا عنهـا ، ونحن قـد حملنا عـن العدو المؤنـة بتخـريب البـلاد التـي كان العـدّو يـريد أن يحاصرهـا وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تثـوب اليها، ويتوقع أن يبـدهه المصاف قبل النـزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من لاسـلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنـا عن اللقـاء ، وفررنا قبـل المواجهة،وزدنـا زيادة عجيبة وهـو أن المنهزم ينهـزم بالـرجال ونحـن ننهزم بـالبلاد» ثـم قال:

«وثبوت مولانا على عكا هو حراستهـا وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعـه لايفي بعشر قراقر من ستين قرقـورة وصلت الى الفـرنج نجـدة من بـلاد المجوس في السنـة الماضية ، وانما الزائد سمعـة ملك وقـد هلك ، ورأس قد قطـع، وقائد جيـش وقد كبا كالجمال

ومنها عند ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعـافيته من مرض عرض له في شهـر رمضـان:« أسفـرت بشـارته عـن أن المولى أتـاه الفـرج وغـذاؤه الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالـت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيـه الأولين من تعريق النـون من الحمد لله رب العالمين فيـه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الا لمسرته بعافية المولى أدامها اللّه، وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى اللّه الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدّو ، فيجمع اللّه تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا اللّه بهذا المرض سيف اللّه الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها:«وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى اللّه مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن اللّه سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى اللّه عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه اللّه اليها ، ولمعالي الأمور أعانه اللّه عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من اللّه تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا ،وهل أصبح إلا راضيا ، ألا يعلم أن اللّه تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل اللّه إلا رايته، وهل يعرف مال ينفق في سبيل اللّه إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب اللّه يتلى، وسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقرأ ، أويرى به إلاّ الخيل تعرض، والسلاح يقلب،لاأقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه اللّه على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد،(ولينصرن اللّه من ينصره)(١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذلة اللّه عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة اللّه ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه ، فلا أعدم اللّه الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام برعاياهم فأقعد مايروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته، ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم مكان بسم اللّه من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم اللّه إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن اللّه سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ، فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه اللّه إلا ان الاسلام قد رضي بما يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام(قضي الأمر)[١٢٣] فأما ملك الألمان فقد سلبه اللّه ماأضيف اليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب.، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه اللّه قد قبلت البشرى، وصورة الرؤيا أن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال:أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن اللّه قد سلب ملك الالمان ماأضيف اليه، والمشهور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتاب من المهدية إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية ، وذكر من فيه أخبارا ، وقد طولع بها ، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة ، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره إلى بلاد الاندلس ، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر ،وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية ، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر اللّه كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وانها قاصدة الشام خيب اللّه قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق ، ويقدِّر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها ،

ووقوف معـائشها،وكساد أسـواقها ،وانكسـار تجارتها،ولولم تكن الـدراهم سلعة لاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجـدت كما يوجد الدينار، وإن تصريـف الـدراهـم بعـد أن يصير مستخـرجـا بـذهـب شغـل شـاغـل، واستخراج ثـان غير الاول، وعسى اللّـه ان يأتي بالفتـح أو أمر مـن عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد اللّه ملكه مـن وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والمماليك من وراء ضرورة لاتخفى عـن المولى وصدر المولى بحمد اللّه واسـع وفرج الله منه قريب، وهـذه الضائقة لما يريده اللّه تعالى من حسـن موقع الفرج بعدهـا، فقد انفـق المولى مال مصر في فتح الشـام، وأنفق مـال الشام في فتح الجزيـرة، وأنفق مال الجميـع في فتح السـاحل، وينفق ان شـاء اللّه تعالى مال القسنطنطينية في فتح روميـة، والملوك كلهـم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهـم إلى أن يسلموها إليـه فيشكره اللّه على مـاأخرجه في سبيـل اللّه منها ، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبهـا وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقـه،فإن اللّـه سبحانـه لايضيق رزقـا على يده الكـريمة، لاسيما وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنهـا« ينهي المملـوك وصـول رسول ملـك الـروم بما في صحبته مـن هديـة، وبما على لسانـه من رسالـة ،وبما على يده مـن كتاب، وحضر بين يدي الملك العـادل وجرى من المفاوضة مـا زبدته امتنان الملـك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقـة على حـرب السلطـان، وإطـلاق طـريقهـم ، وامتنـع وسـدّ الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصـى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنـع دونهم، وجعـل موافقتـه أن البـلاد في هـذه السنـة غاليـةالسعـر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقـوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخـرى» ثم قال:«وهذاملـك الروم خائف من الفـرنج على بلده،مـدافع عن نفسـه إن تم له الدفـع ادعى انه بسببنـا،وان لم يتم

ادعى انه غائب عـن مقصده ومقصدنا، وقد جعل مـااورده من أن يقال ان البطاركة في قمامـة من قبله، وان ينقل مـن ولاية الفرنج الى ان يـوليها الطاغيـة من أهـل عمله سببـا يبسط به عـذره بزعمـه عند أهـل جنسه ، ويـدفع بـه عن نفسـه لاسيما مع إقـامـة الخطبة الاسـلامية ، ونقلـه المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلاميـة ، أرغم اللّه بها أنفه، وعجل بسيفها حتفـه، ومولانا ابقاه اللّـه يتثبت في الاجوبة ، ولايجيـب الى ماعلى الاسـلام فيه غضـاضة ، ولا الى مـا للكفر فيـه قوة(ان ينصركـم اللّه فـلا غالـب لكم)(١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيـق مـن قبرس اليـه يخبره بعصيـانه على ملـك انكلتيـز ومكـاشفتـه بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطـان أعز اللّه نصره يبذل له من نفسه العبوديـة والطاعـة والمظاهـرة على ملك انكلتيـز ، والاخبار متـواترة بـأن الملك العتيق أحـرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عـن السـاحل ، ولا شبهة ان مـولانايتقبل مـن المذكور ويقوي نفسـه على هذه المباينـةفان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعـض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعـا للميرة عن الشـام وامنا لجانـب كثير مـن جوانـب البحر ، وهـذا الملك العتيـق قد صـار لمولانا صـديق،ومـاسمي العتيـق إلا لانه صـار لمولانا عتيقـا، ولا اعتبار بحديثنا مـع صاحب القسطنطينية في انـا ننجده على قبرس، فانا انما وعدنـا بالنجدة عليها لما كانت بيد عـدونا ، واللّه ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، واللّه يعصمك من الناس.

وقف المملـوك على كتاب بغداد والمقصود الـذي ندب لأجله الـرسول مـا ألم بذكـره في الكتـاب وهـي المعونـة على ا لجهـاد ، وعـرف استدعـاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنـا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيـت في يد مـن هـو الآن بها لكانـت في يـد المولى أبقاه اللّـه

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها ، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها ، وقد فتح اللّه للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف ، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة ، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرَّه المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه ،ومايليق ان يسير الا من يريهم مايعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على مايريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولابد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده ،بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله آخرهم حجا الرشيدرحمه اللّه، ويستقربه بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بما اشار اليه ابن الشهرزوري، ولاشك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد ، يعني ابن السلطان ، وكان ينوب عن اخيه العزيزبمصر ، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وأن أحدهما وهوالصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدة، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنهما كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته اللّه من أهل حمية الجاهلية ، واللّه سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:(واعتصمو ا بحبل الله جميعا)[١٢٥] ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى اللّه عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه اللّه يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس، والكندهري، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون، وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النحمي، ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقة الخاصة واقفون في القلب، وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا، وبالدبابيس قضا، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا ، فما راموا مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو بالضعف وانه متورط في الحتف ، فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا إن صح منهم الثبات بانكسارهم ، واصحابنا حواليهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، ،هم يتحركون في سكون ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولايصح لدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبذل إياز الطويل هذا اليوم جهده،وفل في هذا اليوم حدهم حده ، وكذلك سيف الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بأمرهم ، واصبحوا يوم الخميس الى نار الوطيس ، ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص منهم خلق ، وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فرحين بذل الكفر وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة وماعاد وا الىٰ مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهـم أحد في ذلـك اليـوم أصلا، وعلـم العدو مـرتفـع على عجلة وهـو مغروس فيهـا وهي تسحـب بالبغال، وهـم يدنون مـن العلم وهـو عال جدا كالمنارة، خـرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبـان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتـى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شـدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعـل معظمـه للحلقة المنصـورة في ذلـك اليـوم فـإنهم أذاقوهـم طعـم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويـل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقـام يحكي عـن الاوائل، وجـرح جراحـات متعـددة.وهو مستمـر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعـانه ، ولـه مقامـات متعددة، وجـرح خلق كثير في ذلـك اليوم ، وعـزم السلطان في تلـك الليلة على كبـس بقيتهم في الخيـم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلـك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانـب ونحن من هذا الجانب، فلم يصـل من أهل البلد كتـاب، فرجع عن ذلـك العزم بسبب تأخـر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطـان الناس عن القتـال خشية ان يغتالـوا فإن العدو كـان قد قرب مـن خيمه ووقف الأطـلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العـدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجـت على اليزك الاسلامي وحملـت عليهم، وانتشب القتـال بينهم ، فقتـل من العـدو وجرح خلـق كثير منهم شخـص كبير فيهم مقـدم عندهم ، وكـان على حصان عظيم ملبـس بالزرد الى حـافره، وكان عليـه لبس لم يـر مثله، وطلبـوه من السلطـان بعد انفصـال الحرب فدفـع اليهم جثتـه وطلب رأسه فلـم يوجـد ، وعاد السلطـان الى مخيمه، وأعيد الثقـل إلى مكانـه، وعاد كل قـوم الى منزلتهـم، وكان عماد الـدين زنكـي غائبـا بنفسه مـع الثقل لمرض كـان بـه، وبقي عسكـره فعاد وقـد اقلعت حماه وبقـي التياث مـزاج السلطان وهـو كان سبـب سلامـة هذه الطـائفة الخارجـة، لكونـه لم يقدر على مبـاشرة الأمر بنفسـه، ولقد رأيتـه رحمه الله وهو يبكـي في حال الحرب ، كيـف لم يقدر على مبـاشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاد ه واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا :

أقتـــــلاني ومـــــالكـــــا

واقتـــلامـــالكـــأمعـــى(١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضما الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلاّ نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل الميرة والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه،ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنةكاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطيء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهن عظيم ، وحرج السلطان لذلك حرجا شديدا ،وكان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخل الشتاء وعصفت الاهواء ووقع في سفن الفرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم ، وحصل الامن فيه من جانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فرأى السلطان ان يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة ، وماأفكر ان في ذلك مخافة وآفة ، وأشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل، فمن نجز أمره انتقل ، وكان الرأي ازاحة علة المقيمين فإنهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتباع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعله انفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار ، فلما فسح لهم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم ، وانتثر ذلك النظم ، ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها، وماثبت ممن كان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن ، وقضي الامر، وتكفل بالداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتاج اليه من الرجال والاموال ، فان كل من عين للدخول

كرهـه وصار يتـوسل في ان يعفـى ويبذل في نفسـه الفداء ، ثـم اا حقت
كلمة الـدخول على مـن تعين له استمهلـوا زمانـا يتهيأون فيـه للدحـول
ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر ، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن اركز ، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء ، وسلموه الى البلاء ، فقاتل وصبر فعُرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلّافي يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا ، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال :وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه ، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهمات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطـار ، ثم وصـل في ذي الحجـة ،ورجـع الفضل ، واجتمـع الشمـل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى مـن هذه السنة تـوفي بالموصل قـاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قـاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكـاتب عليـه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشـد له اشعـارا حسنة منها في التوحيد:

قـامـت بـاثبـات الصفـات أدلـة
قصمـت ظهـور أئمـة التعطيـل
وطـلائع التنـزيـه لما أقبلـت
هـزمـت ذوي التشبيـه والتمثيـل
فـالحق مـا صرنـا إليـه جميعنـا
بـأدلـة الاخبـار والتنـزيـل
مـن لم يكـن بـالشرع مقتـديـا فقـد
ألقـاه فـرط الجهـل في التضليـل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لائمـي في هـوى الصحـا
بـة ارجـع إلى سقـر
لا بلغـت المنـى ولا
نلـت مـن رفضـك الـوطـر
كيـف تنهـى عـن حـب اقـوا
م هـم السمـع والبصر
وهـم سـادة الـورى
وهـم صفـوة البشر
فـأبـو بكـر المقـ
دم مـن بعـده عمـر

ثـــــــم عثمان بعـــــــــده
وعليّ على الاثـــــــــــــــــــر
أيها الــــــــرافضي حســـــــبك
فـــــالحق قـــــد ظهــــــــر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد: والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، وووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلـة أول ربيع الاول خـرج أصحابنـا من البلـد وهجموا على العدو وقتلوا منهـم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم مـن خيمهم جمعاً عظيما منهـم اثنتـا عشرة امـرأة ، وفي ثـالـث ربيـع الأول كـان اليـزك للحلقـة السلطانيـة ، وخرج اليهم من العـدو خلق ، وجرى بينهم وقعـة شنيعة ، وقتل فيهـا من العدو جماعـة منهم مقدم كبير، ولم يفقـد من المسلمين الا خـادم رومي صغير عشـر بـه في الحملـة فرسـه يسمـى قـراقوش ، وكـان شجاعـا له وقعات، وفي تاسـع ربيع الاول بلغ السلطـان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسـار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفـاضل وانذر الفرنـج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصـل في أثناء ذلـك اليوم خمسـة وأربعـون أسيراً من الفـرنج اخـذوا في بيروت، فيهم شيـخ كبير هرم لم يبق في فمـه ضرس ، ولم يبق فيـه قوة إلا مقدار مـايتحرك، فسألـه عن مجيئـه فقال للحج إلى قمامـة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهـر، فرق له واطلقـه وأعاده إلى العدو راكبـا على فرس، وطلب أولاده الصغـار أن يأذن لهم في قتـل أسير فلم يـأذن ، وسئل عـن ذلك فقـال:لئلا يعتادوا من الصغـر سفك الدم ويهون عليهـم وهـم الآن لايفرقـون بين المسلم والكـافر. ثـم لما أقبل الربيـع توافـت العساكـر وفاء بموعدها، فـوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قـدم الأمير علم الدين سليمان بـن جندر صـاحب قلعتـي عـزاز وبغراس ، وهـو شيخ لـه رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومـرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبـدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التـدبير، وكان قد شاع الخبر بـأن ملوك الفرنج واصلـون ،وهم حـاشدون حـافلون فـوصـل ملك افـرنسيـس فليب في عـدة من عبـدة الصليب ،ثـاني عشر ربيع الأول في سـت بطس عظـام ، مملوءة بفـوارس ذوي اقـدام ، فقلنا مـاحمل الماء إلا أهل النـار ، ومـاأجلب للدوابـر الا الدبـار ، وكان عظيما عنـدهم مـن كبار ملـوكهم ينقـادون له بحيـث اذا

حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد:ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم با لمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الانكلتيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه،فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ،ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكـون وأنا واقف في جملتهم فـأرضعته ساعة ، ثـم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هـذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهـم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلـك اليوم وصل ظهير الـدين ابـن البلنكري، وكان مقـدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ،فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ،ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقي فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موئسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلون مايقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يبتل به احد ولا يصبر عليه جلد ، والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد، وصوبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الاثر البين، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم، وكبس خنادقهم والهجوم عليه ، ودام ذلك حتى وصل ملك الانكلتيز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد امر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما، حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكلتيز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من الآلات والمير ولم يظفر العدومنها بشيء أصلا، وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر ،وخلصوه من الغرق ومثلوا به

وأنفذوه إلى البلـد ليخبرهم بالواقعـة ، وحزن الناس لـذلك حزناً شـديداً والسلطـان يتلقى ذلـك بيـد الاحتسـاب في سبيل الله تعـالى والصبر على بلائه.

قال : وكان العدو المخذول قد صنع دبـابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانيـة من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحـاس ، وكانت تعلـو على السور ويركـب فيها المقاتلـة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهـم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانـوا قد قربـوها من السور بحيـث لم يبق بينها وبين السـور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهـد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بـالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعالى حـريقها ، واشتعال النـار فيها وظهـر لها ذؤابة نـار نحـو السماء واشتـدت، الأصوات بـالتكبير والتهليـل، ورأى النـاس ذلك جبرا لذلك الـوهن ، ومحواً لذلك الاثر ، ونعمة وايناسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكـان ذلك تشميتـا لتلك العطسه ، ثـم جرى بعـد ذلك عدة وقعـات في هذا الشهر ، وهـو جمادى الأولى، وهجم المسلمـون خيم العـدو ونهبوهـا ، ووصـل رجل كبير مـن أهـل مازنـدان يـريد الغـزاة، فوصـل والحرب قائمـة فحمل حملـة استشهد فيهـا في تلك السـاعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلـد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينـالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفـة عليهم مـن حين قـدوم الانكلتيـز الملعون ، ثـم مـرض مرضـا شديـدا اشفى فيه على الهلاك ، وجـرح الافرنسيـس، ولايزيـدهم ذلك إلا إصرارا ً وعتـوا ً، وهرب الى السلطـان خادمـان ذكرا أنهما لاخـت ملـك الانكلتيز وأنهما كـانـا يكتمان إيمانهما ، فقبلهما السلطان وأكـرمهما ، وهرب أيضا المركيـس منهم إلى صور، وكان قد استشعـر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويذبون، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل ا لجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فمايزيد في كل يوم إلا قربا ، ومايجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لايحصر معدوده ، ولايصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة
فمايفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ا ن تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها،وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم،ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ،وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب ان يحمل لها دجاجَ وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ،ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء ومايجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطةخضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ،ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلد ،وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقي ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات،وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين:«لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام،وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي:وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلـك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخـل هو وأصحـابه إلى أسوارهـم عليهم،وترجـل جماعة مـن أمراء الأكـراد كالجنـاح وأصحابـه وهو أخـوالمشطوب ولفيفهـم، وزحفوا حتـى بلغوا أسوار الفرنـج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهـم وقاتل عن العلـم قطعة مـن النهـار ، وفي ذلك اليـوم وصـل عز الـديـن جرديـك النوري وسـوق الزحف قـائمة فترجل هـو وجماعته،وقـاتل قتالا شـديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامـل البعيد، ولما عرف السلطان أنـه لاسلامه، وأن عكا عـدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم :خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحـدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العـدو بالقهـر، وخلوا البلـد بما فيه واتـركوه بما يحويـه، فشرعوا في ذلـك واشتغل كل منهـم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهـاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتـى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلـة الثانية لمصير السر إلى العـلانية . قـال :ولـو صح ذلـك لنجـح المقصد ولكـن الفرنـج اطلعوا على هـذا السر، فحرسـوا الجوانب والأبـواب وكان سبـب علمهـم اثنين مـن غلمان الهاربين خـرجـا إلى الملاعين وأخبراهـم بجليـة الحال،وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعـة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولـة الطعن والضرب، وفيهـم صاحـب صيـدا فطلب نجيـب الدين العدل، وكان السلطان يعـذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولـده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العـدل مـرارا في الخطـاب والجواب، فلم ينفصـل الأمـر على الصـواب، وبـذلنا لهم عكـا على مافيهـا دون مـن فيها، وأنـا نطلق لهم أسرى بعـدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح :ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال:لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركةعظيمة بحيث اعتقد ان ربما كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه— يعني الخارج صاحب صيدا —طليق السلطان ،فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا،وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص،و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار، وألفا وخمسائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. فانه كان قد استرضي وعاد عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى عل أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والواهلة الحيرى ، فسليته بها تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيها قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقـدس الشريف ، وكيفيـة الحال في ذلـك وإعمال الفكر في خـلا ص المسلمين المأسـورين في البلـد ، وانفصل الحال على أن رأى التـأخر عـن تلك المنزلة مصلحـة فإنه لم يبق غرض في المضايقـة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنـزلة التي كان عليهـا أولاً بشفر عم، وأقـام هو جريدة مكـانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغـل العدو بالاستيلاء على البلـد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثـم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفـر ومعهم أقوش حـاجب بهاء الـديـن قـراقوش، وكـان لسـانـه فإنـه كـان رجـلا عاقـلا مستنجزيـن ماوقـع عليه عقد الصلـح من المال والأسرى، فـأقامـوا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قـال العماد :وخرج سيـف الديـن المشطوب ، وحسـام الديـن حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قـال:ولم نشعر إلاّ بـالـرايـات الفرنجيـة على عكـا مـركوزه،وأعطـاف أعلامها مهـزوزة ، وعمّ البلاء ، وتـم العنـاء ، وعز العزاء وقنط الـرجاء ، وحضرنا عنـد السلطان وهـومغتم ، وبـالتدبير للمستقبـل مهتم، فعـزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قـد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتـاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبـوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خـزانته بعد مـاحصلـه ، وأحضر صليبهـم المطلـوب المسلـوب ، وأتـم شرطهـم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتـاب كتبه الفـاضل عـن السلطان الى شمـس الدولـة بن منقـذ

وهوبالمغرب في الرسالة :«لقـد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفـا، قولا لايطرقه التسمح ، بـل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكـا افرنسيس وانكلتيز وملـوك آخرون في مراكب بحـرية وحمالة حملـوا فيها الخيول والخيـالة والمقاتلـة والآلة ،ووصلت كـل سفينة تحمل كل مدينة،واحـدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسـلاح اليه، والداخل بالميرة عليـه»ثم قال: «وأخذ البلـد على سلم كالحرب ،ودخله العـدو ولو لم يدخـل من البـاب دخل مـن النقب، ومـاوهنا لما أصـابه في سبيـل الله وماضعفنـا، ولا رجعنا ورا ءنـا ولا انصرفنا، بـل نحن بمكـاننا ننتظـر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجـزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طـرقهم ، وخيمنـا على مخنقهم، وأخـدنا بـأطراف خنـدقهم ، وأحوج مـاكنا الى النجدة البحـرية، والأساطيـل المغربيـة، فإن عاريتنـا به تـرد، وعـاديتنـا بها تشتـد، والامير يبلـغ مـابلغـه مـن خطـب الاسـلام وخطوبـه، ويقوم في البـلاغ يوم الجمعـة مقام خطيبـه ، ويعجل العـودة وقبلها الاجـابه، ويستصحب السهـم ويسبق ببشرى الاصابـه، ويشعر أن الرايـة قد رفعـت لنصر تقدّم بـه عرابـه، فإن لـلاسلام نظـرات الى الافق الغربي يقبلهـا ، وخطرات من اللطف الخفـي يقرّبها، ويكفي مـن حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقـي غربا، وخطرة أوهمت ان تلـك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعـزم ملك الافـرنسيس على المسير الى بـلاده لأمر إختـل عليـه، فأخـذ قسما من الأسـارى وسلمهم إلى ا لمركيـس ووكله في قبـض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفـرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر مـن جـانـب البحـر ، وانتشروا بالمرج ووصلـوا الى الآبـار التـي حفـرهـا اليـزك،وتواقعـوا مع اليـزك وأمدهـم السلطان ففلـوا العدو وصرع منهـم خمسون فارسا.

قال القـاضي :وخرج خلـق عظيم ولم يزل السيـف فيهم حتـى دخلوا

خنادقهم ، قال :ولم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرّغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ،ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا :لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرّزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهدهـم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعـده عنهم، وكان اليزك قـد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهـم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغـوا منهم حمل المسلمون عليهم وجـرت بينهم حرب عظيمـة جرى فيهـا قتـل وجـرح مـن الجانبين ، ودام القتـال الى ان فصـل الليـل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفـون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفـوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا مـن المسلمين إلّا رجلا معـروفا مقـدما أو قـويا أعـدّ للعمل في عمائرهم.

قـال العماد: وطلب السلطـان منهـم أن يضمنهـم الداويـة في قبـض المال،فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فـاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهـر مـن فحـوى كـلامهـم الخلـف، ثـم ذكـر قتـل الاسـارى ، قـال: فشاهدناهـم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشـك أن الله كساهـم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامـة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئـذ في المال، وفـرّق مجمـوعـه في رجاء الـرجـال، وأعـاد الاسـارى إلى أربابها،واحتوت عليها بدمشق أيـدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكـانه وأعـاده الى صـوانـه لا لعزه بـل لهوانـه، فـإنه لامصـاب عندهم أعظـم مـن استيلائنا عليه،وامتداد ايدينا اليه، وقـد بذل فيه الروم ثم الكـرج بذولا، وانفذوا بعد رسـول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صـادفوا سولا.

ومـن كتاب عمادي عـن السلطان في ذلـك:« وللكرام آجـال، والحرب سجـال، ولله مـن المؤمنين رجـال، والآن فقـد ثـارت الحميـات، وهبـت النخـوات، ووجب على كـل مسلم ان ينهـض لنصرة الاسلام، ويتـدارك ماحـدث من الكسر والوهـن، بالجبر والاحكام ويعيـد ما وهى مـن عقد الفتـوح الى النظام، فـأين ذوو الأنفـة والحمية، والهمـم العليه، والنفـوس الأبيـة، أما يغتمـون لمصرع مـن استشهد مـن أخـوانهم، أمـا يثورون لثـأر

ايمانهم،أمـا تبكي العيـون لمن قتل مـن أمـاثلهم وأعيـانهم، فإن مصـابهم عظيم، ومقـامهم عنـد ربهم الكريم كـريم، وأراد الله بـذلك تنبيـه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون ، وكل أسير أتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر ،والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف ، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك ،وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر ، وعن يسارهم الرّمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة،وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال:فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعـلاه والعدو يشرب من أسفلـه، ليس بيننا إلامسـافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ، وتقدّمواعلى البركـة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهـم من ورائهم هو ومـن معه النهر ولم يـأخذوا مـن خلفهم الحذر، ففجأهـم وفجعهم ، وفرغ من شغلهـم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهـم وغنمهم ، ثم نهض الفرنـج اليه، وحملـوا عليه وجـرت وقعة شـديدة لحزب الضـلال مبيدة ، جلبـت لنـا غنيمة ، وعليهـم هـزيمـة، وأحضر الأسارى عنـد السلطـان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهـم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحـل السلطان وعبر شعراء أرسـوف، ونزل على قـرية تعرف بـدير الراهب، وطلـب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلـوة فاجتمعا، فاشار بالصلـح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننـا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنـج الساحل، فاصطلحـوا انتم وهم وكـل منا يرجع إلى مكـانه، فقـال: على ماذا يكـون الصلح؟ قـال: على أن يسلم إلى أهـل الساجـل ماأخـذ منهم من البـلاد، فأبـى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلـك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يـوم السبـت رابـع عشر رمضـان كانـت وقعـة أرسـوف تـأهـب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلـوهـم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه مـن الضيقة احتموا وحملـوا حملة واحدة فانكشـف من كان قـدامهم، واندفعـوا وثبت ذلـك اليوم العـادل وأصحابـه وقايماز النجمـي، وعسكر الموصل ، ثم كـرت العساكر كرا إليهم، وجرت النـوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلـة عظيمـة ، فلجـأوا إلى جـدران أرسـوف ،ولـولا ذلـك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم،وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلاّ سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتر، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين ،وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه،وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعةمن الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية:«سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنـا عليهم في نواحيها، ومـن جملة أيامنا المشهـودة، ومواسمنا المعروفـة المحمودة يوم الاثنين تـاسع شعبان عنـد رحيلهم من قيسـارية» فذكر الـواقعة السابقة وفيها « أنـه نفق ألف رأس»، ثم ذكـر يوم أرسوف وحسـن عاقبتـه للمؤمنين بعـد اليأس، ثـم رحل السلطـان تاسـع عشر شعبان ونزل بالـرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلـة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجـاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنـى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمـد العماد في هذا على مـا اشتهر بين العامـة من ذلـك ،وأما اهـل العلم المصنفـون في أخبار الصحـابـة رضي الله عنهم، كـابن سعـد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بـالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان ، ونزل بظـاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليـه من الأمر، وكـان لما نزل بالـرملة أحضر عنده أخـاه العادل وأكابر الأمـراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علـم الدين سليمان بن جندر بخـرابها، للعجز عن حفظها على مـابها، ووافقه الجماعة وقـالوا: قـد ضاق عـن صـونها الاستطاعـة، فإن هـذه يـافا قـد نزلـوا بها وسكنوا فيهـا، وهي مدينة بين القـدس وعسقلان متوسطـة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فـاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنـه وحكمه، فـاقتضت الآراء اقـامة العـادل بقـرب يافـا مـع عشرة مـن الأمراء ، حتـى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القـاضي: أشار عليـه بتخريب عسقـلان خشية أن يستـولى عليها الفرنج، وهـي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين ، ويـأخذوا بها القدس الشريـف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطـان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عـن حفظها لقـرب عهدهـم من عكـا وماجـرى على من كـان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شماليها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبد أ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله:والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا ًواحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ،ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولايمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وامر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوبعمارة يافا ،وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح،فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا ،وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها،فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم،فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجاعظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقض منها الابراج التي على ساحل البحر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسومها، وفض ختومها، وقبض ارواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طلولها دوارس، ورسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس، قال: ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا، لكن وجد كلا له متجنبا، متجببا، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها إتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها، وفض سوارها، وسكانها كانوا في رفاهية ، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الاثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن

قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوّج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار:«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدّق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منهمامسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدّو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية،لكن لما فتح تشعثت أسواره،وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغبا في المصالحة والمسالمة إلى العادل ، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها،وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوّفوها، واتهموها في دينها وعنفوها،وقالوا لها مامعناه: هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك وماأجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز .

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيداوبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى ، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قال العماد : وكان محتقراً للعظائم ، مقترفا للمآثم واضعا للشرب والقصف والمواسم، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

ما كنت أوّل سار غره قمر ... ورائد خدعته خضرة الدمن

مثل لنفسك شخصي انني رجل ... مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي: وأرسل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ماننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له، وهو عندنا

عظيـم ، فيمن بـه السلطان علينـا ، ونستريـح من هـذا العناء الـدائم، فارسل السلطان في جـوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهـو عندنا أعظم مما هـو عندكم ، فـانه مسرى نبينا ومجتمـع الملائكة، فلا يتصـور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين،وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيـلاؤكم كان طارئا عليهـا لضعف من كان بها مـن المسلمن في ذلك الـوقت ، وأمـا الصليب فهـلاكه عنـدنا قـربة عظيمـة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركـوه بن بـاخل الكـردي من عكـا ، وكان أسيرا بها ،وكـان ادّخر حبـلا في مخدته فتدلى مـن طاقة في بيـت الطهارة ، واشتد هـربا في قيوده إلى تل العيـاضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليـه النهار، ثم كسر قيوده وسـار إلى المسلمين ، ثم تواتـر الخبر أن الفرنج على عـزم النهوض، فسـار السلطـان من المخيـم بـالنطـرون إلى الـرملـة سابـع شـوّال،وأقـام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ،تمت دفعـات ،منها وقعة في نـاحية يازور، وكـان النصر فيها للمسلمين ، وفقـد مـن المسلمين ثلاثـة ،وذلـك ثامـن شـوّال ، وفي ســادس عشر شـوّال وقعـت وقعــة أخـرى عظيمــة قتـل فيهاجماعـة من الامراء، وأسر فـارسان من الكفرة معـروفان بالبـأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خـامــس شـوّال وصـل الخبر أن الاسطــول المصري استـولى على مراكـب الفرنـج ، ومنها مركـب يعرف بـاسم المسطح قيـل انه كـان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ،وانـه قتل منهم خلق عظيـم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثـامن عشر شـوّال اجتمـع الملـك العادل والانكلتيـز على طعـام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبـة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فـامتنع رحمه الله وقـال: الملوك إذا اجتمعـوا يقبـح بينهم المخـاصمة بعـد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنيةالمقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركواخيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر

كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا

كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب
أن عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
إن يمموك فلا بدع لجهلهم
تسعى إلى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نمورا ولا تغني وقاحتهم
إذا أسودك في أبطالهم زأروا
فحام عن حوطة البيت المقدس لا
خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما
فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها
وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق،وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميارفين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ،ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد،وكانا من أعظم الأعوان على مايكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والـدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قـال: وفيها في أواخـر ذي الحجة تـوفي الامير علم الـدين سليمان بـن جندر مـن أكابـر أمراء حلب ، وكـان في خدمة السلطـان بالقـدس وهو شيـخ الدولـة وكبيرهـا وظهيرهـا ومشيرها، وهـو الـذي أشـار بتخريـب عسقلان لتتيـوفر الحنايـة والأهتمام بالقدس، ثـم مرض بالقـدس و طلب المسير الى الوطن فـأدركته المنية بقريـة غباغب على مرحلـة دمشق ، وفيها في الثالـث من رجـب كانـت وفاة الصفـي بن القـابض نـائب السلطان بدمشق ، وكان قـد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفـالة أبيه وعمه، فلما ملـك مصر أمرحـه في أموالها، وحكمـه في أعمالها، حتـى نال المنـى، ووجـه ونجح وحصـل على الغنـى وكتب لمماليكـه دوره وأمـلاكه وجميـع أمواله، وفيها تـوفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتـح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قـال العماد: وكنـت استنبتـه في كتـابة الإنشـاء وخـرّجتـه ، وقلبتـه في مراتـب المعالي ودرّجتـه، واعتمد السلطـان عليه في الترسـل الى السلاطين العجـم،وخواص الأمـراء منهم والخدم ،وكـان نبيلا نبيهـا كريما وجيهـا. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهـل النظافـة والظـرافة، ومـن ذوي الفصاحـة والحصـافة ، وفقـه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسبـاب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هـذه السنةتوفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشـاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامـام الشافعي رضوان الله عليه، وبنـى المدرسة في جـوارها ،واحيـا شعار التـوحيد، وبنـى أمره على التسديد والتشـديد، وحفظ شمل الشـافعية من التبديـد، وكان السلطان مجيبا لـه الى كل مايستـدعيه، ويقضي لـه من الحوائج مايقتضيـه، ووقف على المدرسـة التـي بنـاها وقـوفـا، وأعطـاه في بنـائها ألـوفـا، فلما تـوفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة مـن العلماءفردوا ، وشفع العادل في صدر الديـن أبي الحسن محمد بـن حمويه شيـخ الشيوخ، فكتب بها لـه، ورتب بوقفهـا وتدريسها استقلالـه، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيهـا توفي الوجيـه بن النفيـس مستوفي ديوان دمشـق بها، وكان نبيها مهيبا نزهـا عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الديـن أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريما سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلـت تربة القاضي محيـي الدين أبي حـامد محمد بن محمـد بن عبد الله بـن القاسم الشهـرزوري إلى المدينة النبـوية على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام،وكان قاضي الموصـل ، وقد بنى ربـاطا هناك ، وكـانت وفاته بـالموصل في الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنةست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القـاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه:«سبب اصدارهـا الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريـح اذن عمه محيـي الـدين مـن الموصـل الى المدينـة المقدّسـة ، على ساكنهـا أفضل السـلام ليدفـن في الربـاط الذي أنشـأه حيث يبعـث مع شفيع الامة يـوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحـد المحفور ، في جوار الضياء والنـور ،ويحشر بما يناله مـن البركة والحبـور ، منشرح الصدر(اذا بعثر مـافي القبور * وحصل مـافي الصدور)[١٢٨] ، ولقد وفـق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعـة المعظمة ». قا ل: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتـادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حدّ الوفور.

قال ابـن القادسي: ووصل الحاج في صفـر بعدمـا اعتاقت اخبـارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ مـا في الكعبة من أموال، وأخذ طـوقا كان يلزم الحجر الاسود فـأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخـل بعض الباطنية بعد سنـة أربعمائة فضربه بـدبوس ، وقـال: إلى كم حجـر، وفي يد ذلـك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوّع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فـأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفـت وجعل له طوق، فأخـذ أمير مكةذلك الطـوق، فلما وصل أمير الحاج عـزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناهـا على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قـاسم بن محمد بن أبي هاشـم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتـوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهـو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قـال ابـن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنـةسبـع وثمانين سـار عز الـديـن —يعنى صاحـب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرهـا وبها ابن اخيه معز الـدين سنجـر شاه، لأنه كـان سيء السيرة معه خارجـا عن طـاعته مسـاعدا لـلأعـداء عليه، فعـزم على أخـذها منه فخضـع وطلب العفـو والصفح ، فأجابه وصالحة على قـاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم،فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عز الدين جرديك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ،فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما المركيس ،ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين ،وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها،ورحلوا عنها واسروا من فيها،وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين ، فتمكنوا من نقب المكان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب —كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرّسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العـادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجـار وديار بكـر متباطئة في الاتيـان، وسببه مـاكان مـن تقي الـدين ومـوته، وتشرط ولـده في بقاء بـلاد أبيه عليـه، وان الافضل كـان طلب من والده البـلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع مالـه من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلـك البلدان ،ورحل من القدس في ثالـث صفر، وأطلـق له السلطـان عشرين ألـف دينار سـوى ماصحبـه بـرسـم الخلع والتشريفـات، ووصـل الى حلـب فـاحتفـل اخوه الظـاهـر لقدومه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليـه مائلا، وأحضر له مفـاتيح بلده، وقـدّم له كل مـافي يده ، وسمـع ناصر الـدين بـن تقي الـدين بما اقلقـه، ودفع منـه الى ماازهجـه وأزهقه، ووصـل رسولـه الى العادل وهـو بالقـدس لاجئا إلى ظلـه، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فـاحتمى له واحتمله،وقوّى في تقويته أملـه، وخـاطـب السلطـان في حقه واستعطفـه، وقـال: أنـا امضي إليـه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليـه حران والرها ونعطيه في السنة الاخـرى حماه والمعره، ثم قـرر السلطان مـع أخيه العادل أن يـأخذ هـو تلك البـلاد وينـزل عن اقطـاعـاته بمصر، ونصـف خـاصه ،ففعـل واستزاد قلعـة جعبر، فامتنع الملـك الظاهـر من تسليمها حتـى استظهر ، فسـار العـــادل في العشر الأول مـن جمادى الأولى وكتـــب السلطـان إلى الأفضل بـالعود، فجـاء هذا راجعـا، وذهب ذلـك مسارعـا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القـاضي ابن شدّاد :عاد الأفضـل منكسرا متعتبا ، فوصـل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطـان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليـه وطلبه فما وسعه التـأخر ، فســار إليه مـع العساكـر الواصلـة اليه مـن الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قـال ولما بلغ ابـن تقـي الـدين مـوجـدة السلطـان ، أنفذ إلى العـادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرها وسميساط ، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرّق نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ،وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبزه ،وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقـدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بـالاحتراز عند مقـاربة العـدو ، فـأقامـوا ببلبيس أياما حتى اجتمعـت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعـدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهـم ويتوصل إليهم بـالعرب المفسدين ، ولماتحقـق العدو أمر القفـل، أمر عسكـره بالانحيـاز إلى سفـح الجبل وركـب في ألف راكـب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافيـة فبات ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينـذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطـاف حوله في صورة عربي ورآهم سـاكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانـت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت النـاس ووقع عليهـم بخيله ورجلـه ،فكـان الشجاع الايـد القوي الـذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفـل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مـع جماعة مـن العرب،وقسـم أوغلوا في البريـة مع جماعـة من العـرب، وقسـم استولى العـدو عليهم فسـاقهم بجمالهم وأحمالها وجميـع مامعهـم ، وكانـت وقعة شنعـاء لم يصب الاسـلام بمثلها مـن مدة مـديدة ، وتبـدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيـد منهم من نجا بنفسه، وجمع العـدو مـاأمكنـه جمعـه مـن الخيـل والبغـال والاقمشـة وسـائر أنـواع الأمـوال،وكلـف الجمالين خـدمـة الجمال، والخربنـديـة خـدمـة البغـال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفـل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكـى من كـان أسيراً معهم أنـه في تلـك الليلة وقـع فيهم الصـوت أن العسكر السلطاني قـد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ،وبعدوا عنهـا زمانا، ثـم انكشف الأمـر فعادوا ، وقـد هرب جمع مـن الاسرى ، وكان الحاكـي منهـم، وأخبر أن الاسـارى خمسمائة، والجمال تنـاهــز ثـلاثـة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراءوتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدّو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذاالعدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب)(١٢٩) وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله مايرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ،ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على اشدّحال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد ؟قلت:لا، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعا، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدّر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لايدينون للأتراك، والأتراك لايدينون للأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد

الـديـن بن فـرخشـاه صـاحـب بعلبك ، وكـان رحمه الله : يحدّث نفسـه بـالمقام، ثـم منعـه رأيـه عنه لما فيـه مـن خطـر على الإسلام، فلما قـارب الصبح أشفقـت عليه وخاطبتـه في أن يستريح سـاعة لعل العين تـأخذ حظهـا من النـوم ، وانصرفـت عنـه إلى داري ، فماوصلت إلا والمؤذن قـد أذن ، فأخـذت في أسباب الـوضوء ، فما فـرغت إلا والصبـح قد طلـع ، وكنت أصلي الصبـح معه في غالب الأحـوال ، فعدت إلى خدمتـه ، وهو يجدد الوضـوء فصلينا ، ثـم قلت له: قـد وقع لي واقـع أعرضـه، فأذن لي فيه، فقلـت: المولى في اهتمامه وماقد حمل نفسـه من هذا الأمـر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجـزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجـع إلى الله تعالى، وهذا يـوم الجمعة وهـو أبرك أيـام الاسبوع، وفيـه دعوة مستجـابة في صحيـح الاحاديـث، ونحن في أبـرك موضـع يقدر أن يكـون فيه في يـومنا هـذا ، فـالسلطان يغتسـل للجمعـة ويتصدق بشيء خفيـة بحيـث لايشعر أنـه منـك، وتصلي بين الأذان والإقامـة ركعتين تنـاجـي فيهما ربك ،وتفـوض مقاليـد أمورك إليـه وتعترف بعجزك عما تصديـت له ، فلعـل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

قال :وكان رحمه الله حسـن العقيدة تام الإيمان، يتلقى الأمـور الشرعية بأكمـل انقياد وقبـول ، ثم انفصلنـا ، فلما كان وقـت الجمعة صليـت إلى جـانبـه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيتـه سـاجـدا، وهو يـذكـر كلمات ودموعـه تتقاطر على مصـلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعـةبخير، فلما كان عشيتهـا ونحن في خـدمته على العـادة وصلـت رقعة جـرديك ،وكـان في اليزك يقـول فيها إ ن القـوم ركبوا بـأسرهم ووقفـوا في البر على ظهر، ثـم عـادوا إلى خيامهـم، وقـد سيرنا جـواسيس تكشـف أخبـارهم ،ولما كـان صبيحـة السبـت وصلـت رقعة أخـرى يخبر فيهـا أن الجواسيـس رجعـوا وأخبروا أن القوم اختلفـوا في الصعود إلى القـدس والرحيـل إلى بلادهـم، فذهـب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القـدس، وقالوا: نحن إنما جئنـا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونـه ،وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرونهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم والحمدلله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ،وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولاينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لايجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان)[١٣٠] ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها ،والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراء ها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الـرسول مـن جانب قطـب الدين بـن قليج أرسـلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلـق لايعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسـول : إني قتلت في الطـريق اثنـي عشر فارسـاً، ويقول تقـدم إلى من يتسلم بلادي منـي فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصـدّق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسـول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعـة القدس عشرون نفراً وان من سكـن من النصارى والفرنـج في البلد لايتعرض لهم ، وأمـا بقية البلاد .فلنا منها الساحليات والوطـأة ، والبلاد الجبلية لكم ،وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحـة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس مـاعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبـون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الـرواح إلى بلده.فـأجيب بـأن القدس ليـس لكم فيـه حديـث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الـزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأمـا البلاد فعسقلان وماوراءهـا وقراها لابّد مـن خرابه، فقال الرسول : قدخسر الملك على سورهـا مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقـراها له في مقابلة خسارتـه ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلـدها مناصفة ، وأما باقـي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسـول يقول: الملك يسـألك ويخضع لـك في أن تترك له هذه الأمـاكن الثلاثـة عامـرة ، وأي قدر لها عند ملكـك و عظمتك ، ومـاسبب اصراره عليهـا إلا أن الفـرنـج لم يسمحـوا بها ، وهو قـد تـرك القـدس بـالكليـة لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسـوس إلا في القمامة وحدها، فتترك له انت هـذه البلاد ويكـون الصلح عامـا فيكون لهم كـل مافي أيـديهم من الداروم إلى أنطاكيـة، ولكم مافي أيديكـم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القـاضي: فانظر إلى هذه الصنـاعة في استخلاص الغـرض باللين

تارة، وبـالخشونة أخـرى، وكان لعنـه الله مضطراً إلى الرواح ، وهـذا عمله مع اضطـراره والله المسؤول في أن يكفـي المسلمين مكره، فما بلـوا بأعظـم حيلة ولا أشد اقداماً منه، فأجابه السلطـان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بها نـريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التـي سألها فلا يـوافق المسلمـون على دفعها إليه، وإلا فـلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيـأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الـوطأة ، ثم عاد الرسـول وقال: إن الملـك قال: لايمكننـا أن نخرب مـن عسقلان حجـرًا واحـداً ولايسمع عنـا في البلاد مثـل ذلك، أمـا البـلاد فخذوهـا معروفـة لامنـاكرة فيهـا ،وعند ذلـك تأهـب السلطان للخـروج إلى جهة العـدو ، وإظهار القـوة وشدة العزم على اللقـاء ، وبلغه في العاشر مـن رجب أن الفـرنج خـذلهم الله قد رحلـوا طالبين نحـو بيروت،فبرز من القـدس الى منـزلة يقـال لها الجيـب ، وجاء العـادل من الشرق والظـاهـر من حلـب ورحل مـن الجيب الى بيت نـوبة،ثم رحـل إلى الرملة فنـزل بها على تلال بين الرملـة ولدّ وركـب جريـدة حتى أتـى يازور وبيـت جن وأشرف على يافا ، ثم نـزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنـة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العـادل ،وركب المنجنيقات،وزحـف عليها، فأرسـل العدو رسولين نصرانيـا وفرنجيـا يطلبان الصلـح، فطلب منهـم قاعـدة القدس وقطيعته، فـأجابـوا إلى ذلك ، واشترطـوا أن ينظروا إلى يـوم السبت تـاسع عشر رجب، فإن جـاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقـر، فأبى السلطان الإنظار، وأمربـالنقب فحشي وأحرق ،فوقع بعض البـدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خـارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنـة فعلا غبار مع الدخان، فـأظلم الأفق ،وما تجاسر أحد على الولوج خـوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نـابت مناب الأسوار،ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفـوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقـد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعـان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجـر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل مـالحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قدآل الامر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقـال رحمه الله : الفارس بفـارس، والتركبلي بمثلـه، والراجـل بـالراجـل، والعـاجز فعلى قطيعـة القدس، فنظـر الرسـول ورأى القتال على الثلمـة اشدّ من اضرام النـار، فسأل السلطان أن يبطل القتـال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمـر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحـازون إلى القلعة، ويتركـون الناس يشتغلـون بالبلـد فما بقي دونـه مـانع، ففعلـوا وانحازوا إلى قلعـة يافـا بعـد أن قتل منهـم جماعة،ودخـل الناس البلـد عنوة ونهبوا منـه أقمشة عظيمة وغـلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقـايا قماش مانهب مـن القافلة المصرية ، واستقـرّت القاعدة على الوجـه الذي قرره السلطان ، وكـان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايتـه من عسكر العـدو الذي بعكـا فوصـل منـه كتاب يخبر فيـه أن الانكلتيز الملعـون لما سمع خبر يـافا أعرض عـن قصد بيروت، وعاد على قصـد يافا ، فـاشتدّ عزم السلطـان على تتمة الأمـر وتسلـم القلعـة ،وكنت ممـن لم ير الأمـان لأنه قـد لاح اخذهم ، وكان النـاس لهم مدّة لم يظفروا من العـدو بمغنم يوثبهم عليـه، فكان أخذهـم عنوة مما يبعـث همم العسكر، غير أن الأمان وقـع واتفق الصلـح فكنت بعـد ذلـك ممن يحث على اخـراج العدّو مـن القلعة وتسلمهـا خوفـاً من لحوق النجـدة، وكان السلطـان يشتد حـرصه على ذلـك، غير أن الناس قـد أقعدهـم التعـب عن امتثـال الأمر وأخـذ منهم الحديـد، وشدّة الحر ودخـان النار بحيـث لم يبق لهم استطـاعة على الحركة، وسمعنـا بوق الفـرنج في السحر ، فعلمنـا بوصـول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جـرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانةشمـس الدين وقال: امـض إلى الملك الظاهر وقـل له يقف ظاهـر الباب القبلي ، وتدخـل أنت ومـن تراه إلى القلعة وتخرجـون القوم وتستولي على مـا فيها من الأموال والأسلحـة وتكتبها بخطك إلى الظـاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعةوأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا،ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ماقال :هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا. فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء،ثم جاء رسول يقول:كم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا،ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على ا لموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة،وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة،فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه:«الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله،ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة،ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة،ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكلتيز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسيةفي مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي —يعني —الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي الإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل :إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها،وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأ فضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتهاوشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية:«وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملك الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك،وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يعافى ،فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب».

ومماقيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

ياصاح قل للانكلتيز الكلب دع
عنك الجنون وخذ مقالة منصف

القدس مافيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنطفي

والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدبابيس الأليمة تعرف

واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف

واعجب لرمح بالرؤوس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لماقيل صلح قد جرى
هذا حديث مخرّف ومحرّف

سلف تولى السيف عقد شروطه
أحبب به من مسلم ومسلف
ظنوه سلما وهو في أرواحهم
سلم إلى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها:

منعت ظباء المنحنى بأسوده
وأشدّ ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتاز فإن في
خفقاته ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أ مير كبير، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت،وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمه الاّالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه،وكان كما قال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم با لمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح،ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلاّتوفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الـزيارة ويرجعوا الى بلادهم،فيأمـن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثـرة من يزور منهـم صعب عليـه ذلك وسير الى السلطان يسـأله منع الزوار، واقترح ان لايـأذن لأحد إلا بعد حضور علامة مـن جانبه او بكتابه، وعلمـت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتمـوا في الحج، فكان يرد في كـل يوم منهـم جموع كثيرة مقـدّمـون وأوساط وملـوك متنكـرون، وشرع السلطـان في اكـرام مـن يـرد ومدّ الطعـام لهم ومباسـتطهـم ومحادثتهـم، وعـرفهم انكـار الملك ذلـك، وأذن لهم السلطان في الحج وعـرفهم انـه لم يلتفت الى منع الملك مـن ذلك ، واعتذر الى الملك بأن قومـا وصلوا من ذلك البعـد ويُسر لهم زيارة هـذا المكان الشريـف لااستحل منعهـم، ثم اشتدّ المرض بالملـك فرحل ليلة الاربعـاء التاسع والعشرين مـن شعبان، وقيل انه مات ، وسـار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جـانب عكا، ولم يبـق في يافـا إلاّ مريـض أو عاجـز و نفر يسير، ثـم أعطى السلطـان للناس دستـوراً، فسار عسكـر إربل والموصـل وسنجار والحصـن ،وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القـاضي: وكان هـذا مما وقع لي وبـدأت بالاشـارة به في يـوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيما ، وأمـر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتـى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتـب جرائد بما يحتاج إليه في الطريـق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرهـا إلى البلاد ليعدوها ، ورحـل من النطرون رابع شهـر رمضان وسار حتى أتى مـار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مـريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطـع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثـل فعرف بمجيء السلطان إلى مـار صمويل لعيادتـه فحمل على نفسه وسـار حتى لقيـه بذلك المكـان ، وهو أول وصـوله ولم ينـزل بعد ، ونزل وقبـل الأرض وعاد ركب فاستـدناه وسألـه عن مزاجه، وسـارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقـال العماد: عاد السلطـان بعـد السلم إلى القـدس لتفقـد أحوالـه، وعرض رجالـه واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليـد آثاره وتحسينها، وتعميـق خنادقـه ، وتوثيـق طرائقـه، وزاد في وقف المدرسـة (١٣٢) سوقـا بدكاكينهـا وأرضا ببساتينها ، وكذلـك رتب أحوال الصوفيـة في رعايتها ، والـوقـف الكـافـل بكفـايتهـا ، وعين الكنيسـة التـي في شـارع قمامـة للبيمارستـان، ونقل إليـه العقـاقير والأدوية مـن جميـع الأنواع والألـوان ، وأدار سـور القدس على قبـة صهيـون وأضافهـا إلى المدينـة، وأمر بـادارة الخنادق على الجميع، وصمـم العزم على الحج فلم يوافقه القـدر، وتأسف على فواته بعد أن قـدم مقدماته وأقام شهر رمضـان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القـاضي الفاضل من قبل السلطـان أنه عازم على الحج كتب إليـه مشيرا بتبطيله:« إن الفرنج لم يخرجـوا بعد من الشـام ، ولاسلوا عن القدس، ولاوثق بعهـدهم في الصلح، فلا يؤمن مـع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفـر سلاطيننا سفراً مقدرا معلومـا مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلـة فيصبحوا القـدس على غفلة ، فيـدخلوا إليـه ، والعياذ بالله ويفـرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبـائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحـاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألـف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هـل يؤمن أن يقال قـد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسـم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ باللـه منه، ما هذه الشناعـة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعـدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمـل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسـأل مولانا أن لايشارك أحـدا فيما يكتبه لا مـن مهم ، ولا من غير مهـم، يا مـولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقـرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظـالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقـوع القطر، ومن تسلـط المقطعين على المتقطعين مـا لاينـادي وليـده، وفي وادي بـردى والـزبداني مـن الفتنة القـائمة والسيـف الذي يقطـر دما مـالا زاجر لـه،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعيني لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما في القلب من جمرات

ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبت بادّكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات

على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر
وأشرف مبنى لخير بناة
وما زال فيه للنبيين معبد
يوالون في أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ
ـرفيع العماد العالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما
وللبر والاحسان والقربات
يوافي اليه كل أشعث قانت
لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها
توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم
فمن بين نوّاح وبين بكاة
لتبك عليها مكة فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة
وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها
ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها
وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها
وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره
لهم عظم ما والوا من الغزوات

أما علمت أبناء أيوب أنهم
بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتاح القدس زهرة ملكهم
وهل ثمر إلاّ من الزهرات
فمن لي بنوّاح ينحن على الذي
شجاني بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله
يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات(١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحا في سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجد الأقصى له عادة
سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا
أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أوّلا
وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهـور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولـة الملك الصـالح نجـم الديـن أيوب بن الملك الكامل ناصر الديـن محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقـد استولـوا أيضـا على الشقيف وصفـد، والله يسهـل عودهما إلى أهـل الاسلام ، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ماها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فمازال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم ، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب ، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية ، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي بيمند ، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطيه من البقاع فبات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البوس ، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الاربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين ، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقدومه واختالت،وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار ، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد المجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل ، وارتدع جاه الجاهل ، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وأخذت بحار سماحه في موجها ، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار ، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعمائه ، ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الرّبيع وافتراره، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشتغل بالصيد والقنص ، منتهز من العمر للفرص ، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكلتيز المخذول متوجها إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوّال، وانفك بهاء الدين قراقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرّجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فوّدعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاًعظيما .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها:« حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيها لولا تغزل عينيها ... لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا ... صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلا ... مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها :

نلـــت مـــن الـــديـــن والدنـــــ
ـــــيا فتيهـــا على الملـــوك وفخـــرا

فتمـــل الأعيـــاد صـــومـــا وفطـــرا
وتلـــق الهنـــاء فطـــرا ونحـــرا

يـــا مسر الطـــاعـــات لله ان أضـــــ
ـــــحى مليـــك على الهنـــاة مصرا

قـــد جمعـــت المجـــديـــن أصـــلا وفـــر عـــا
و ملكـــت الـــداريـــن دنيـــا وأخـــرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنـا ودّعنا عنـد جينين ، وداع الأبد إلى جنـة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهـه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، ولـه مواقف في الجهـاد كثيرة معهوده ، ومقـامـات مشهـورة مشهوده ، ووقـف السلطـان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القـاضي ابن شـداد : وكان السلطان خلـف المشطوب بـالقدس مـن جملة العسكـر المقيمين بـه ولم يكن واليـه إنما كان واليـه عـز الديـن جرديك، وتـوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثـالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصـف شعبان تـوفي سلطان بلاد الـروم عز الـدين قليج أرسـلان بن مسعـود بن قليج أرسـلان بقونيـه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفـرد كـل منهـم بـاقليـم ،فضعـف بقـوّتهم، وعجـز بقـدرتهم ، وانخفض بـرفعتهم، فإنه فـرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طـاعتهم ، واختار لتدبير ملكـه اختيار الدين حسـن بن غفراس ، فخالفـه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صـاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفـاس ، وقال له: أنا بين يديك عـوض الاختيار ، ثم أخلى منه الـديار ، ثم أبعـد عن خدمـة والده خواصـه وأولياءه، وأفنى بـالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ،واستخلصه لنفسـه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثـم جاء به إلى قيصر يـة ليأخذهـا من أخيـه ، وأظهر أنه بـأمر أبيه، فوجـد قليج أرسلان فرصـة في خلاصه ، فساق وحـده ودخل البلد ونجا مـن الولد إلى الـولد، فعاد ملكشـاه إلى قونيه واقصرا دار ملـك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول مـن ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجـر منه ، ويعرض عنه، حتى حصـل عند ولـده غيـاث الديـن كيخسرو صـاحـب برغلـو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء بـه إلى قونيـه فدخلهـا ، وحلى عطلها ، ومـات بها، فجلس مكان والده، وقوي على أخيه.

قال : وجـاء الربيع في شهر ربيـع الأول، فكتب إلي نشو الـدولة أحمد ابن نفـاذه أبياتا يدعـوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقـد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعـا النـاس للـذات مشمـش جلـق
فقـد أسرعـوا مـن كـل غـرب ومشرق
فقـم يـا عماد الـديـن تحظ بـأكلـه
ولا تثـن عنـه عـزمـة السير تسبـق
وقـل حين يبـدو أصفـر اللـون مشرقـا
ويـا حسنـه مـن أصفـر اللـون مشرق
لأكلـك مـا يلقـى الفـؤاد ومـا لقـي
وللنـوب مـا لم يبـق منـي ومـا بقـي
فليـس سـوى الحلـواء في القـدس مـأكـل
ومـا جلبـوه مـن زبيـب وفستـق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته:

هلمـوا نسـابـق نحـو مشمـش جلـق
وثـم كما نهوى على الأكـل ننتقـي
تصفـر شـوقـا لانتظـار قـدومنـا
ومـن يتعشـق ذا الفضـائل يشتـق
إذا حضرت اطبـاقـه غـاب رشـدنـا
لما يتـلاقـى مـن مشـوق وشيـق
حكـى جمرات بـالفضـا قـد تعلقـت
فيـا عجبـي مـن جمرها المتـألـق
كـأنّ نجـوم الأرض فـوق غصـونـه
فيـا حيرتي مـن نجمـه المتـألـق

وجنــــاتها محمـــــرة وجنـــــاتها
فمـــن يـــرهـــا مثلي يحب ويعشـــق
بـــدت بين أوراق الغصـــون كـــأنها
كـــرات نضـــار في لجين مطـــرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

....

كـــرات نضـــار بـــالـــزمـــرد محدق
تســـاقطهـــا أشجـــارهـــا فكـــأنها
دنـــانير في أيـــدي الصيـــارف تـــرتقـــي
ومشمـــش بستـــان الـــزكـــي بشهـــده
شهـــادتـــه تقضي فـــزكّ وصـــدّق
يقـــول رفيقـــي في دمشـــق تعجبـــا
أمـــالـــك بستـــان مقـــالـــة مشفـــق
فقلـــت إلى بـــاب البريـــد وســـوقـــه
لأمثـــالنـــا تجنـــى بســـاتين جلـــق
ولـــو كـــان لي بـــالسهـــم سهـــم وجـــدت لي
منـــالي بـــأيـــام الثمار ومـــرفقـــي
إذا كنـــت مبتـــاعـــا مـــن الســـوق مشمشي
فمالي إلا الـــلـــذة المتســـوق
ومـــالي بـــأربـــاب البســـاتين خلطـــة
فيصبـــح في حيطـــانها متسلقـــي
كـــرام وثـــوقـــي في الشتـــاء بـــودّهـــم
ولكنهـــم في الصيـــف ينســـون مـــوثقـــي
ومـــا ثـــم مـــن يجدى ويقـــري ويقتنـــي
ثنـــائي ســـوى المحيـــي الكـــريـــم الموفـــق
وذلـــك يـــوم ليـــس غيره
أمـــن أجـــل يـــوم واحـــد قلـــت لي اسبـــق

على أنني لو قيل بالصين دعوة
أثرت اليها لوعة المتحرق
فإن جئت قبلي جلقا فارم منعما
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريما ينتخي لضيافتي
بمشمشة عند القدوم وينتقي
فلا تنس نشو الدين نشوة خاطري
وقل عن صبوحي كيف شئت ورقق
وهات وساعدني وخذ من قريحتي
لطيمة داري من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد اذن لي السلطان لمهم له ايضا اتفق:
قد صح عزمي على المسير فلا
أبغي مقامي والقلب قد رحلا
امضي إلى دمية مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصوّر بل مدّور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلوا بها النضار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بدا العينك في
فيك وفيه النوى اذا وصلا

حلى تبر على عـــــرائس أغصـــــا
ن تشكـــت مــــن قبلهـــا عطـــلا
حمر حســان الـــوجـــوه قـــد لبســت
مـــن خضر أوراقهـــا لها حلـــلا
عـــرائس مـــن خـــدورهـــا بـــرزت
تحســب أشجـــارهـــا لها كلـــلا
حـــــلاوة لا يمـــــل أكلهـــــا
إذا الحلاوات أحــــدثـــت ملـــلا
زهــــر كشهـــب السماء راجمة
جـــن جنـــاة بقطفهـــا كفـــلا
عيـــونها الـــرمـــد في تـــرقبنـــا
جـــاحظـــة أبـــرزت لنـــا مقـــلا
مـــاذا التـــواني وذا التـــأخــر والا
بطـــاء قـــدّم مسيرنـــا عجـــلا
نغـــدو خفـــافـــا إلى مـــواسمهـــا
مـــن قبـــل نبلى بصحبـــة الثقـــلا
قـــد انتظـــرنـــا مـــن الخزانـــة مـــا
نعطـــى فـــأكـــدى نـــوّابها البخـــلا
فـــإن عـــدمنـــا مـــن عنـــدهـــم ذهبـــا
فما عـــدمنـــا عنـــه بـــه بـــدلا
وكلنـــا في عـــوارف الملـــك النـــا
صر نـــرعـــى ونسلـــك السبـــلا

قال: وقلت فيه رباعية:

المشمـــش لا نتظـــارنـــا مصفـــر
والـــروض إلى لقـــائنـــا مفتر
قـــم نغتنـــم الـــوقـــت فهـــذا العمـــر
لا لبـــث لـــه فمـــن بـــه يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدّم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه :«المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة» .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بمائة ألف دينار.

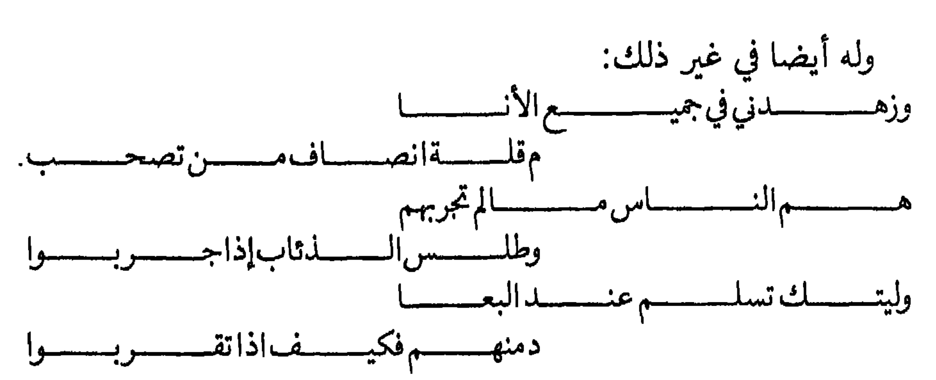
قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ،وله أربع عشرة سنة ،وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها ... ولا أجحد الشيخين فضل التقدّم

وابرأ ممن نال عثمان بالاذى ... كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم

ويعجبني أهل الحديث لصدقهم ... فلست إلى قوم سواهم بمنتم

- ٨٨٧٣ -



وله أيضا في غير ذلك:

وزهدني في جميع الأنا
م قلة انصاف من تصحب.

هم الناس مالم تجربهم
وطلس الذئاب إذا جربوا

وليتك تسلم عند البعا
د منهم فكيف اذا تقربوا

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم ، وبرّز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي ، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ماتمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان ،وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين،فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفـرنج إلى ذلـك المكان فحضروا، وكـان له ولـد صغير، وكان كثير الميـل إليه يسمـى الأمير أبابكر، وكان حـاضرا وكان رحمة الله عليه يـداعبه، فلما وقع بصره على الفـرنج ورأى أشكـالهم خاف منهم وبكـى فاعتـذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمـع كلامهم وقال لي: أكلـت اليوم شيئاً، وكـانت عـادتـه رحمه الله هذه المبـاسطة، ثـم قـال:أحضروا لنا أرزا بلبـن ومـايشبه ذلـك مـن الاطعمة الخفيفـة، فـأكـل رحمه الله، وكنت أظـن أن ماعنده شهـوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقـل الحركة عليه، وكان بـدنه ممتلئـا وعنده تكسل، فلما فـرغنا من الطعـام ، قال: مـاالذي عنـدك من خبر الحاج، فقلـت قد اجتمعـت بجماعة منهـم في الطريـق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليـوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقـائهم، وتقدّم بتنظيـف طرقاتهم من الميـاه فإنها كانـت سنة كثيرة الأنداء والأمطـار، وقد سـالت الميـاه في الطرق كـالأنهار، وانفصلت عن خـدمته، ولم أجـد عنده من النشـاط ما أعهده منـه، ثم بكـر في يوم الجمعة فركـب ثم لحقته وقد لقـي الحاج ولم أجد عليه كزاغنـده، وماكان لـه عادة يـركـب بدونـه، وكـان يـوما عظيما قـد اجتمـع فيه للقـاء الحاج والتفـرج على السلطـان معظـم مـن في البلـد ، فاذكـرتـه ذلـك، فكـأنـه استيقظ، فطلـب الكزاغند فلـم يوجـد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بـذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهـة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فلما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ،لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ،فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبةطبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة،ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ،فغير وعرض عليه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره،واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعيرمقدارا صالحاً، وفرح الناس فرحاشديدا فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد،فدخل، ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الارض، وأن اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما، وخارت القوّة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، ومانعلم مايكون ومانفعل هذا إلاّ احتياطيا على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه، وناصر الدين صاحب صهيون ،وسابق الدين صاحب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوتّه، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل،وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك.رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة،وهو رجل صالح يبيت بالقلعةحتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه،وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)[١٣٤] سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله،ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لااله الا هو عليه توكلت)[١٣٥]تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لفدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ ،فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدةالا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوّة تحمل ذلك المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع مااحتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدارالتي في البستان الذي كان متمرضا بها، ودفن في الصفة الغربية منها،وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجدّدنا

حالا من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى أخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء،وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه، وهويحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا باحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد اغلق باغلاق بابه رهنه، ولم نشعر بها قضاه القدر وأجنه، وخرج من خدمه من أخبر بسقمه، وكان من شرط الأدب أن يخلى له موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجمت الظنون ، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن جماع ا لكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملك الأفضل قبة شمالي الجامع في جواره، بشباك إلى الجامع لزوّاره، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية:

قال الملك الناصر من كلفني
في الجرد بغير شيمتي فما أنصفني

مـــــا يعلــــم أن ذلـــــك الملــــك فنـــي
لم يبـــــق مـــــــن الجود إلا كفنـــــي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، ومازال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأوّل شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية:«أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي :«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١٣٦)قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ماصار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى :« أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر».وقال:« وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

- ٨٨٨٣ -

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوّة رهباته وهباته

أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته

بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته

أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته

أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنها أدركت ثاراته

اغلال أعناق العدا أسيافه
أطواق أجياد الورى مناته

لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم
أجدت لطب الدهر تدبيراته

من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته

من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته

لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذ عاش قط لذاته لذاته

مسعودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الاسلام يسهر دائما
ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد
فمات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبداً إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه
أركاننا وتهدّنا هدّاته
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً
يهوي ولا تهوي بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحراً طاميا
فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل
محفوظة بوفوده حفاته
من لليتامى والأرامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
تحضر لرحمة ربه سقياته

وكعادة البيت المقدّس يحزن الـ
ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه
إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في اغمادها
لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السرير مشاته

وممالك الآفاق ساعية له
فمتى تجيء بفتحهن سعاته
هذه مناشير الممالك تقتضي
توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها
هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جدّد عرضه
وإذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه
عجل فقد طمحت إليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه
حتى تفيء إلى هداك بغاته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا
في ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بإسداء الجميل كأنها
فرضت عليه كالصلاة صلاته
هل للملوك مضاؤه في موقف
شدّت على أعدائه شدّاته
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم
رجحت وقد نجحت به مسعاته
كم جاءه التوفيق في وقعاته
من كان بالتوفيق توقيعاته

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله وبه توفيقي»

يا راعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا
دينا تولى مذ رحلت ولاته

أضجرت منا أم أنفت فلم نكن
نصاب لشدّة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فوق السماء علية درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكاً باقيا راحاته
اعزز على عيني برؤية بهجة الـ
ـدنيا يابى ما الكرام أباته
لاتقتدوا إلاّ بسنة فضله
لتطيب في مهد النعيم سناته
وردوا موارد عدله وسماحه
لتردع عن نهج الشمات شماته
ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا
ببنيه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعز عزيزه
وظهور ظاهره لنا سرواته
الأفضل الملك الذي ظهرت على الـ
ـدنيا بزهر جلاله جلواته
والدين بالملك العزيز عماده
عثمان حالية لنا حالاته
والملك غازي الظاهر العالي الذي
صحت لاظهار العلى مغزاته
ولنا بسيف الدين أظهر نصرة
بالعادل الملك المطهر ذاته

وللعماد فيه قصيدة أخرى:
من للعلا من للذرى من للهدى
يحميه من للبأس من للنائل

طلب البقاء لملكه في آجل
إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل

بحر أعاد البر بحراً بره
وبسيفه فتحت بلاد الساحل

من كان أهل الحق في أيامه
وبعزه يردون أهل الباطل

وفتوحه والقدس من ابكارها
أبقت له فضلا بغير مساجل

ما كنت أستسقي بغيرك وابلا
ورأيت جودك مخجلا للوابل

فسقاك رضوان الإله لأنني
لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ودينارا واحدًا ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما،وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلافه، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش ، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه،وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوّه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قا ل في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمةتسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزا عن الهفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ماردّ سائلاً ولا صدّ نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً .

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب،فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان ماأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوّابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال :فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح،ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة،فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا،ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه،واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله،والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام واعطي بعلبك وأقام بها مدّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جاريةعلى نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يـزل عازما عليه وناويا لـه لاسيما في العام الذي توفي فيه، فـإنه صمـم العزم عليه وأمـر بالتأهـب، وعملت الـزوادة ولم يبق إلا المسير، فـاعتاق عـن ذلـك بسبب ضيـق الوقـت ، وفـراغ اليد عما يليـق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قـال: وهـذا شيء اشترك في العلم بـه الخاص والعـام، وكـان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كـان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلـوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكـان يستقرىء من يحضره في الليـل، وهو في بـرجـه الحزبين والثلاثـة والأربعـة وهـو يسمع، وكـان يستقرىء في مجلسه العام مـن جرت عادته بذلك الآيـةوالعشرين والزائد على ذلـك، ولقـد اجتـاز على صغير بين يـدي أبيـه وهـو يقـرأ القـرآن، فاستحسن قراءتـه فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعـامه، ووقفـ عليه، وعلى أبيه جزءا من مـزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيـق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمـع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبـة في سماع الحديث،ومتـى سمع عـن شيخ ذي روايـة عاليـة وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمـع عليه، واسمع من يحضره في ذلـك المكان مـن أولاده ومماليكـه والمختصين بـه، وكان يـأمر النـاس بالجلـوس عند سماع الحديـث اجلالًا له، وإن كـان الشيخ ممـن لايطرق أبواب السـلاطين ويتحامـى عن الحضور في مجالسهـم سعى إليـه وسمع عليه، تـردد إلى الحافظ السلفي بالاسكنـدرية وروى عنه أحـاديث كثيرة، وكان يحب أن يقـرأ الحديث بنفسـه، فكان يستحضرني في خلـوته ويحضر شيئامـن كتب الحديـث، ويقرأ هـو فإذا مـر بحديـث فيه عبرة رق قلبـه ودمعت عينـه، وكان كثير التعظيـم لشعائر الديـن قائلا ببعـث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بـالنار، مصدقا بجميع ماوردت بـه الشرائع منشرحـا بـذلـك صدره، مبغضـا للفـلاسفـةوالمعطلـة والدهريـة،ومن يعاند الشريعة المطهـرة ، ولقد أمر ولده الظاهـر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس،وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لمايعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللهعلى قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته،وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد ر أيته وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه،وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهماواتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه،وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انـك لاتحابي، فقلـت : وفي أي قضيـة هـو خصمـك، فقـال: إن سنقـر الخلاطـي كان مملـوكـي، ولم يزل على ملكـي إلى أن مـات، وكان في يـده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستـولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يـاشيخ وما الـذي أقعدك إلى هذه الغـاية فقال: الحقـوق لاتبطل بالتـأخير، وهذا الكتاب الحكمـي ينطق بأنه قـد اشتراه من فلان التـاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كـذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعـرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكـه بوجـه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبـت من هـذه القصة،وأعلمـت السلطـان بذلـك، فأحضره واستـدنـاه حتى جلس بين يدي، وكنـت إلى جانبه ثم انفـرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثـم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقـال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكـي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مـع ثمانية أنفس في تـاريخ متقدم على هذا التـاريخ بسنة وأنه لم يزل في يـدي وملكي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة مـن أعيان الأمراء المجاهـدين فشهدوا بذلـك وحكوا القضية كماذكـرها، وذكـروا التاريخ كما ادّعـاه، فأبلس الـرجل فقلـت له: يامولانـا هذا الرجل مـا فعل ذلك الا طلبا لمراحـم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى ومايحسـن أن يرجع خائب القصد، فقال: هـذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضيـة من المعاني الغريبة العجيبة من التواضـع والانقياد إلى الحق وإرغـام النفس، والكـرم في موضـع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر مـن أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منـه ابن قرا أرسلان فأعطـاه إياها، ورأيته وقـد اجتمع عنده وفود بـالقدس ولم يكـن في الخزانة مانعطيهـم، فباع قـرية مـن بيت المال وفضضنا ثمنها عليهـم ولم يفضل منه درهم واحد، وكـان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب،وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الاّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه اللهمن عظماء الشجعان،قوي النفس شديد البأس،عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان،وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرته أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألـف، وأما بـالموت والغرق فـلا يعلم، ومـارجع مـن هذا العـالم إلا الأقل.

قال: وكـان لابدّ له مـن أن يطوف حول العـدو كل يوم مـرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحـد، وعلى يده جنيـب، ويخرق العساكـر من الميمنـة إلى الميسرة يرتـب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقـوف في مواضع يراها،وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء مـن الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت لـه قدسمـع الحديث في جميـع المواطن الشريفـة، ومانقـل أنه سمـع بين الصفين، فـإن رأى المولى أن يؤثـر عنه ذلـك كان حسنـا، فأذن في ذلـك فـأحضر جـزءا هناك مـن لـه بـه سماع، فقـرىء عليه ونحـن على ظهـور الدواب بين الصفين يمشي تـارة ويقف أخرى، ومـا رأيته استكثـر العدو أصـلا، ولا استعظـم أمـرهـم قـط، وكـان مـع ذلـك في حـال الفكـر والتدبيريذكر بين يـديه الأقسام كلها، ويرتب على كـل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقـد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقـع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفـر يسير، وقد انحـاز إلى الجبل يجمـع النـاس ويردّهـم ويخجلهم حتـى يرجعوا، ولم يـزل كذلك حتى عكس المسلمون على العـدو في ذلك اليوم، وقتل منهـم زهاء سبعـة آلاف مابين راجـل وفارس، ولم يـزل مصابـرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر لـه ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهـم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريـه أحوال مهولة وهوصابـر مرابط وتتراءى النـاران ونسمع منهـم صـوت الناقـوس، ويسمعـون منا صـوت الآذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكـان رحمه الله شديد المواظبـة على الجهاد عظيم الاهتمام بـه ولو حلف حـالف أنه ماأنفـق بعد خروجه إلى الجهـاد دينارا ولا درهما إلا في الجهـاد، وفي الارفـاد، لصـدق وبـر في يمينـه، ولقـد كـان الجهـاد وحبـه والشغف بـه قد استولى على قلبه وسـائر جوانحه استيـلاء عظيما، بحيث ماكـان له حديـث إلا فيه ولا نظـرإلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجـاله، ولا ميل إلا إلى مـن يذكره ويحث عليه، ولقـد هجر في محبة الجهـاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنـع من الدنيا بالسكون في ظل خيمـة تهب بها الرياح يمنةويسرة، ولقـد وقعت عليه الخيمـة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلـو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيـده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشـواهد ماذكـر القاضي من ذلـك كثيرة، وقد سبقت مفـرقةفي وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصـار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

مـا أبهج الـديـن والـدنيـا بـالكهـا الصـ
ـديق يـوسـف لا لاذت بـه الغير
ملـك تسـاوى جمادى في الجهـادوتمـ
ـموز لـديـه وضـاهـى نـاجـراً أصفـر
فليـس يثنيـه حـران تـوقـد عـن
رضـى الالـه ولا إن اغـدق المطـر
ولا ينهنهـه عمايكـابـده
ضـجّ أعيـذ معـاليـه ولا ضجـر
ولا يـرى الـروح إلا ظهـر سلهبـة
في بطـن معـركـة مـركـوبها وعـر
صبر جميـل كطعـم الشهـد في فمـه
وعنـد كـل مليـك طعمـه الصبر

قـال القـاضي: وكـان الـرجـل إذا أراد أن يتقـرب إليـه يحثـه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أزبع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كماقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدينا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه إلآنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هـذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس مـاأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنـه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكـا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثـرة دماميـل، كانـت ظهرت عليـه من وسطـه إلى ركبته بحيـث لايستطيـع الجلوس، وإنما يكـون متكئـا على جـانبه إذا كـان في الخيمـة، وامتنع من مد الطعـام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكـان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مـع ذلك كله يركـب من بكرة النهار إلى صـلاة الظهر يطوف على الأطـلاب، ومن صلاة العصر إلى صـلاة المغرب وهو صـابر على شدّة الألم وقوّة ضربـان الدمامل، وكان يعجب مـن ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبـت يزول عنـي ألمها حتـى أنزل، وهـذه عنـاية ربـانية، ولقـد مرض ونحن على الخروبـة،وكان قد تأخـر عن تل الحجل بسبـب مرضه، فبلغ الفرنـج ذلك فخرجوا طمعـا في أن ينالوا من المسلمين شيئـا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجـوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحـل العدو في اليـوم التالي يطلبنـا، فركـب رحمه الله على مضض ورتـب العسـاكر للحـرب وجعل أولاده في القلـب، ونزل هـو وراء القوم بطلبـه، وكلما سـار إلى العدو يطلـب رأس النهـر سار هـو يستـدير إلى ورائهـم، حتـى يقطع بينهـم وبين خيـامهم، وهـو رحمه الله يسير سـاعـة ثم ينـزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه مـن شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايـرى العدو ضعفا، ولم يزل كـذلك حتى نزل العـدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغلـه، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخـرى حتى لاح الصباح، ثـم ضرب البوق وركـب رحمه الله، وركبت العسـاكـر، وأحدقـت بالعـدو

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل مابـاتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال :لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال :ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام،ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأُبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لايعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أوشيئا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلي المكان إلا عمن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاة بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدز الخركاه والخركاة كبيرة، فقال له المخاطب هاهي الدواة في صدر الخركاه، قال القاضي :فليس لهذا معنى إلاأمره إياه بإحضار الدواة لاغير، فالتفت رحمه الله فرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم:(وانك لعلى خلق عظيم)(١٣٨) وماأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين)(١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لايتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس،كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه، وهو يتبسم،وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا،فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه،وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واكرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريز، فأعرض هوعن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ،فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله،فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدّد النكير عليّ في ذلك، فماوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة،و أعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد ر أيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكيةومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
ومدّ يداً منه إلى دافع الخطب

إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب

كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب

ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب

قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب

أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب

ولو أنه يبكى على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب

جزاه عن الاسلام خيرا إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب

تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديد الخوف من مقارنة الصلب

أذل الله العدا مذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب

سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الاولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال :ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيها طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح :تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عّدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ماااستنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها :«اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيما على جدد الجدّ، مستقيما في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في ا لجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفز وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقطع اصلابها، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدّم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايمانهم حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز جيشا فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم،وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتولى حلب وأعمالها وحصونهاومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازي، وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازي، وملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحواها، وبهاء العدل رواها وقوّاها، وأقر البيرة وأعمالهاومايجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرّية والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخوته وأولادهم إليه، وعوّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثم زال ملك هذا البيت في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على ا لبلاد، والله بصير بالعباد.

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان:«متى رأى المملوك خط مولانا طالعا في كتاب، وطليعة على خطاب،تمثل ذلك الشخص الكريم، وذلك السلطان العظيم، وذلك الخلق الكريم، وذلك العهد القديم، فحيي بعد موته، وسبح من(يحيي العظام وهي رميم)(١٤٠) ،ورفع يده بها الله رافعه، ودعا بصالح الله سامعه».

قال العماد: وكان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته، وكان موافقه ومرافقه في مقتضياته، فلما عاد السلطان إلى دمشق ودّعه ومضى إلى حصنه بالكرك، فنابه النائب، ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب، فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام، ولم يطل المقام ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليها من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقي الفرات من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخافه دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات الولاة، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب في ميافارقين وحاني وسميساط وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خف، فخفوا وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدّث أمله بجر العساكر، وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه من ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرها، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بلادنا أو تدخل في مرادنا، فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم فأنجدوه، وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدّم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر،ووصلت المواصلة الى رأس عين ، والعادل بحران، وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة، فغادر ورجع عماد الدين أخوه، وتضرع صاحب ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين، وأمدّه بابن تقي الدين، وابن المقدّم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد الخابور جميعه، وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها، فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط،فرحل إليها فرأى أن

البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلدان، وكان قدوصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لامانع لهامنه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي فإنا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وانما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظرمايقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون مايشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لايرون إلا هذا لأنهم لايؤثرون حركتكم ولا قوتكم، انما الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على مابأيديهم، ويعلمهم انه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما اذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لايشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الانسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وإن كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم—يعني صاحب الموصل— قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدّة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية: الرها،وحران، والرّقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لايزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لايموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية،خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديِّناً خيراً قد ابتنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس عشرة وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا.

قال: وأما عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمور وحدّ شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعه وعسكره، ثم خرج الأفضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

- ٨٩١٨ -

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح ولله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفةبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري :

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر

يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

قال العماد:لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيـز، ورفعهم فـاتفقوا على أن تكون كلمـة الإسلام مجتمعـة على الملك العزيـز لإحياء سنـة والده في الجود والبأس والكـرم، ومن جملـة الأسباب الباعثة تسلم الفـرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيـه، وضعف الأفضل عن استخـلاصه، فقيل للعـزيز: إن توانيت استـولت الفرنـج على البلاد، فخرج العـزيز بعساكـره، وبلغ الأفضـل فضاق صدره، واجتمـع بمن في خدمتـه من الأمراء بـرأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمـي وكان في اقطاعـه بالسواد، وكـان بينه وبين الأفضل شقـاق وعناد، فأرسـل إليه فلـم يقبل ورحـل إلى عسكر العـزيز، ورأى الأفضـل أن يكتب إلى أخيـه بكـل مـا يجب من إعـلاء كلمتـه والإجتماع عليـه، ويكون الأفضـل مـن بعض القـائمين بين يديه، طلبـاً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهـاب الاحن، فـأشير عليـه بغير الصـواب ، وقيل أنـت الكبير وإليـك التـدبير، فجـدّ واجتهـد ولايعلـم أصحـابك بهذا الخور الـذي داخلـك، والجبـن الـذي نازلك، ونحن بين يـديك، وكلنا عاقدون بـالخنـاصر عليك، ووصل رسول الملك الظـاهر والكتب مـن الملوك الأكابـر بالانجـاد المتظاهر لـلأفضل، وسير الأفضل إلى عمـه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـأ عليـه مسير عز الـدين عثمان الـزنجيلي على نجيب ليسرع ويـأتي به عـن قـريـب، وكتبـه واصلـة بعزمـه على نصره ونجـدتـه، وذلـك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضـل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوّار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فـأسرع ودخل دمشق يوم الجمعـة خامس جمادى، ونزل العـزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويـدافع حتـى وصـل عمـه العادل، فكتـب إلى العـزيـز يسألـه الإجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذلـه في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقـال: نفس عن البلد الخناق، وكان قـد بلي البلد منهـم بمالا يطـاق، من قطـع الأنهار، وقطـف الثمار، فتأخـر العـزيز إلى صـوب داريا، والأعـوج، وكان قـد اجتمع عنـد الأفضل مـن

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفرّق من سنين

وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين

وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون

فريح الدهر لم يسمح بوصل
يعود به الهجوع إلى الجفون

فراقاً ثم يعقبه ببين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبـــدي جيـــوش القـــرب حتـــى
يـــرتـــب جيـــش بعـــد في الكمين
ولا يـــــدني محلي منـــــك الا
إذا دارت رحـــى الحرب الـــزبـــون
فليـــت الـــدهـــر يسمـــح لي بـــأخـــرى
ولـــو أمضـــى بها حكـــم المنـــون

قـال: ثم كثـر الشر ممـن حول الأفضـل في حـق الأمراء الكبـار ذوي الأقـدار، فـأنفوا مـن ذلـك، وازمعـوا على الإنفصال لسـوء تلـك الحال، فممن سـار إلى مصر عز الدين سـامة، وحرض العزيـز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضـل مسلوب الإختيار، مع من حوله مـن الأشرار، وممـن سـار إلى مصر القـاضي محيـي الـديـن محمـد بـن أبي عصرون، وتـولى بعـد أشهـر قضـاء القضـاة بمصر وأعمالها، وذلـك سنـة إحـدى وتسعين فاستمـرت ولايته إلى أن عـاد العـزيز مـن الشام، وتبعـه العادل فصرفه وأعاد القضـاء إلى زين الدين علي بن شرف الديـن يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الديـن عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بـابن أبي عصرون ثـم أعيد إليه، وكان الأفضـل قد اشتغل بعد انصراف أخيـه باللذات، وتشاغـل عن أمور الناس بـإدمان الشراب، مع مـن حوله من الأصحـاب، ثم أقلع عـن ذلك وتاب وجدّ في الـذكر والـزهـد وأنـاب، وشرع في كتـب مصحف بخطـه، وحسنـت طـريقتـه، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هـذه السنة في ربيـع الآخـر وصل الخبر بـأن العـزيز قـادم يحصر دمشق مـرة ثانية، فـاشتدّ غم الأفضـل، فأشير عليـه بأن يرحـل إلى عمه العادل، ويـأتى بـه لدفـع هذا القضـاء النازل، فـرحل رابـع عشر جمادى الأولى والتقى بعمـه بصفين، وطلب منه الـرجوع معه إلى دمشـق ففعل، ووصل العـادل إليها تـاسع جمادى الآخرة، وتخلـف عنه الأفضـل، وقصد

حلب للاستظهار بـأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على مـا كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقـي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبـداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضـل، فلم يقبل، فكـان العادل أبـداً مغتماً لذلك، فبـالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى تـرك له سنجقه وصار يركب في خدمـة عمه، وضاق أخوه الظـافر من هـذه الحال، وكان الظاهر قـد نفر عليه جماعـة من الملوك والأمـراء ممن هم في طاعتـه من جملتهم صـاحب حماه، وعز الدين بـن المقدّم صاحب بارين، فـراسلا العادل في الاعتصام بـه، وكان مـن جماعتهـم بدر الـديـن دلـدرم بن بهاء الـدولـة بن يـاروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهـر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منـه الظاهـر الوفاء بضمانـه فتعذر عليـه ردّهم، وتيسر لـه ودّهم، فغضب الظاهر لـذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القـدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تـدبير أمور الأفضـل، فكاتـب الأمراء الأسـدية مـن أصحاب العزيـز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حـزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسـدية أبداً في عناء مـن تقدّم الناصرية عليهـا، وراسل العادل أيضاً العزيـز يخوفه من قبل الأسديـة، ويعرفه ماانطوت عليـه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهـم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبـوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلـوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجـاء السمين، فـدارت الأكـراد حـولـه وقالـوا: لانـأمـن عليـك مـن الناصريـة فأبرمـواأمرهم، وعجلـوا رحيلهم، فرحـل أبو الهيجاء والمهـرانية والأسديـة عشية الإثنين رابع شـوّال، وكانوا أكثـر العسكر، واعلم العـزيز بهم فما بالى بـانصرافهم، وقـال: صفونـا من أكـدارهم ولم يـأمر أصحـابه باتباعهم وردّهـم ،وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثـم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسـول أبي الهيجاء السمين إلى العـادل يعلمه بـرحيل العـزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخاء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقوه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غال، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم،فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للإستزاره، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّ وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلذ مستظهراً بالعدد والعدد، لايحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلاً إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بما أنبىء به وأنبه، وقال

له: أبنـي وتهدم، وأوجد مصالحك وتعـدم، فأنكر الحال وأحـالها وانتقض الأمر قبـل إبرامـه، ووجه إلى الأفضـل من أزعجـه، وإلى صرخد أخـرجه، وسد طـريق الاستنصـار على أخيه الظـافر حتـى أسلم في تسليـم بصرى للظفـر بسـلامته، وبـذلها ولم يتبعهـا بنـدامتـه، ورحل إلى حلـب وأظهـر الظاهـر الاحتفال به، وأمـا الأفضل فإنـه سار إلى قلعة صرخـد وسكنها، وحوّل أهلـه وأخاه قطب الـدين إليها وتوطنهـا،وعند خروج الأفضـل من قلعة دمشـق دخل العـزيز إليهـا يوم الأربعـاء رابع شعبـان، وجلس يـوم الجمعـة في دار العدل، واعتقـد النـاس أنه يطـول مقامـه عنـدهم، فلـم يشعروا به إلا وقـد برّز للرحيل، وتقـدم إلى العادل بأن يتولى البـلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تـاسع الشهر، ونزل بـالمخيم فوق مسجد القـدم، ثم تحوّل إلى الكسـوة وودّعـه بها يـوم السبـت رابـع عشر الشهـر، فلما عـاد العادل من وداع العزيـز قرىء بالجامع منشوره العزيـزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميـع الأحوال، وشـاع أنه نـائب العزيـز، وهو سلطـانه،وأبقـى الخطبة بـاسم العـزيز خاليـة من اسمـه ، حالية بـرسمه، وضرب الـدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشـوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأمـوال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه« بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي:« أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فمايليه إلا تمزيقه،وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ماحسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « ومما جرى في هذه المدود من المثلاث الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي لهوبها واشتدّ هبوبها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج،فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقفى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الرقوم، ولاتزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى(يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق)(١٤١) وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلاّ معاقل الاستغفار، وفرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن اللهسلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بهاوعظنا، ونبهنا بها ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا:« وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

ولـلاسلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملـت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العـادلية، وتلك الهمة المسايفة السيفية، فـالله الله ثبتوا ذلـك الفـؤاد، ودمثوا ذلـك المهـاد، واسهـروا في الله فليست بليلـة رقـاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمـرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظـروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كلـه، وأنكـم ظـل الله فـان صححتـم تلـك النسبـة فـإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابـرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير النـاصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتـاب له آخـر إلى الملك العـادل :« أدام الله ذلك الاسـم تاجـا على مفـارق المنـابـر والطـروس ، وحيـاة للـدنيـا ومـافيهـا مـن الاجسـاد والنفـوس، وعرف المملـوك ماعـرفه مـن الأمـر الذي اقتضتـه المشاهـدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تـــــــــران المرء تـــــــــــذوي يمينـــــــــــه
فيقطعهــــــــــا عمــــــــــد اليسلـــــــــم ســـــــــائره

ولوكـان فيها تدبير لكان مـولانا قد سبـق إليه، ومن قلم مـن الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا:

وتجســـــــــم المكـــــــــروه ليـــــــــس بضــــــــائر
مـــــــــا خلتـــــــــه سببـــــــــا إلى المحمـــــــــود

وآخر كـل شقوه أوّل كـل غزوه، فلا يسـأم مولانا نيـة الربـاط وفعلها، وتجشـم الكلف فهـوإذا صرف وجهه إلى واحـد، وهو وجـه الله صرف الله إليـه الوجـوه كلهـا(والذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينهم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومـن كتـاب آخـر لـه:« هـذه الأوقـات التي أنتـم فيهـا عـرائس

الأعمار،وهذه النفقـات التي تجري على أيديكم مهـور الحور في دار القرار، وماأسعد من أودع يـد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليـه، وتوفيقه الذي مـاكل مـن طلبـه وصـل إليه، وسـواد العجـاج في هـذه المواقف بيـاض ماسـودّته الـذنوب مـن الصحائف، فما أسعـد تلك الـوقعات، ومـا أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع ا لملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية،وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلةروم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

سلـــم الحصـــن مـــا عليـــك مـــلامـــه
مـــا يـــلام الـــذي يـــروم الســـلامـــه
فعطـــاء الحصـــون مـــن غير حـــرب
ســـنـــة سنهـــا ببيروت ســـامـــه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتخرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرنين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكه مضافة إلى ملكه، وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فإن تك مصر أم ملك فماردٍ
إذا انسب البلدان فحل الممالك

تقاعس عنها سنجر وابن عمه
وقصر عنها عزم زنكي الاتابكي

فان تك قد شوركت في فتح غيرها
فما لك في أمثالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين،وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام،فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أوثلاثة لايستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل:« أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

وإذا محاسن أوجه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فـاعزز على المملـوك وعلى الأولياء، بـل على قلب مـولانا، لاسلبـه الله ثوب العز بسرعـة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعـه، ولباسه ثوب البـلا قبل أن يبلى ثـوب الشبـاب، وزفـه إلى التراب وسريـره محفـوف بـاللـذات والأتراب، وكانـت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبـوعين، وكانت في الساعـة السابعة مـن ليلة الأحد العشريـن من المحرم، والمملـوك في حال تسطيرها مجموع لـه بين مرض القلب وجسد، ووجع أطـراف وغليل كبد، وقد فجـع بهذا المولى والعهد بـوالده رحمه الله غير بعيـد، والأسى في كـل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هـذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه:« وأنـا على مايعلمه المولى من العزلـة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظـار البرق الشامي أن يمطر، وحـاشى ذمة الـوعد به أن تخفـر، واشتغال سيـدنا في هذا الـوقت بالدرس والتـدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيـف التي تصرف فيها بالبـلاغة أحسـن التصاريف، نعمـة يتعين شكرهـا على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قـال العماد: ولما توفي الملـك العـزيز خلـف بنين صغـار يزيـدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحـب أولاده، يشيم من شيمـه مخيلة سـداده، وقد اختص لـديه، ونص عليـه، فاجتمع الامـراء الصلاحية وكبيرهـم ومقـدمهم فخر الـدين إياز سركـس ومنهم أسـد الدين سراسنقـر وزين الديـن قراجـه، وعقدوا الأمـر لولـده نـاصر الـدين، ونعتـوه بـالملـك المنصور، وأخـذوا لـه أيمان الجمهور، قـال: وكانت الأسديـة في الايام العزيـزية الناصرية مغمـورين، وبالاستيلاء عليهـم مقهورين، وكبيرهـم سيـف الدين يازكـوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسـوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هـم والصلاحيـة ظاهـر القاهـرة، فقال لهم: نعـم مارأيتمـوه من حفـظ العزيـز في ولده، لكنه صغير السـن لايحتمل ثقـل هذا الفن، ولا بـدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدّس وجد في طريقه نجابا مسرعا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب،وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر،ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قـال: ولما استقر الأفضـل بمصر حملوه على قصـد دمشق، وحصرهـا، وقالـوا له: اطلـب بلدك الذي منـه أخرجت، وعـن المقام فيـه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بـوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهـر من حلب وهـداياه، وقال لـه: انتهز الفـرصة فعمنا عنـا مشغول وإلى إن يتم مـن ماردين مـراده، وينضم إلى بيـاضه سواده نخـرج دمشق عن يـده، ونعجله اليـوم فيها عـن غده، وأنـا أصل إليـك وأقدم عليـك بـالبنود والجنـود والأسـاور والأسود، فما زالـوا به حتـى خـرج بالعسكـر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملـك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمـراء الناصرية المفارقين، فـاستحثه على مفـارقة ماردين، وتواصل مـن الناصريـة جماعة بعـده، وعنـدهم مـن الإستحثـات مـا عنـده، فحـركه القـول وتجرد عـن العسكر واستصحـب معه الأميريـن: عز الديـن بن المقـدّم وبدر الـدين دلـدرم، وسرى ليلا لخمـس بقين مـن رجب، وأوصـى ولـده الكامـل أن يسير في مضـايقة حصـن ماردين بسيرتـه، ويقتدي بعـزمته، ووصـل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العسـاكر المصريـة يوم الخميـس وأحاطـت بدمشـق،ودخلها جماعـة منهم مـن باب السـلامـة بلغوا إلى السـوق الكبير، وأعلنوا الفتـح بالتكبير، ولم يتبعهـم أحد على هذا التـدبير، فخرجـوا من باب الفـراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقـف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فـإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيـه دهليز سرادقـه، وأقدم بـرواعده وبـوارقه، فأشار عليه أمراؤه بـالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهـم زله،فنزلوا عند ميدان الحصا ثـم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلـك الفضا بمضارب الخيـم، ففترّت الصـدمـة الأولى، وقصرت الصـدعـة الطـولى،وخمد الجمر فصـار رمادا، واستحـالت تلـك الأمواج المتـلاطمة ثمادا، ولـزموا منـازلهم أكثـر من ستـة أشهر هنـاك، وتمت فـوارط عدمـت الاستدراك، وامتـدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر،ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق،فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكـرون ويـركبـون، ويقـربـون مـن العسكـر المصري ولايـرقبـون، وحفـر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قـال: وعلى الجملة فما ظهـر منهم صنـع إلا في قطع الماء ومنـع الميره، والمضـايقـة الكثيرة، واحـراق البســاتين، وتخريـب الطـواحين، حتـى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التـأخير والتقـديم، فتسلـط الـرعيـة على الملك العـادل وحملـوه على التسليم والاستسـلام، فتباينـت أراء الملوك المحـاصرين، بما دبـره العادل سيـف الـديـن، ولابـد للكبـار مـن الاحتيـال، إذا صمـم الصغـار على الاغتيال، وليس في ذلـك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفـذ الى الظاهر في البـاطـن، وقال له: أنت السلطـان وحكمك على جميع الأماكـن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لـك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جـالبات لأسقـام، أجلك أن تتـولاها تـولية النـائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً ممـا أعرف لك فيه غرضا، فما لك مايصلـح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتـدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظـاهر، والله المطلـع على الضمائر، وقيـل أرسـل العادل وقـال: أسلـم اليكم دمشـق بعد سبعـة أشهـر، وتربـص وتصبر، فخذوا يمينـي، وكلوني إلى ديني، وظـن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقـون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعـوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نـادمون فيما عليـه من الحصر قـادمـون، فعاد عـن هـذا البـذل، وردّهم إلى سنـن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمـر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملـك معاملـة المبسر لا المجاهـر، فخذ لنفسـك وأبدل معـى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضـل قد صالحني، وعلى الرضى صـافحنـي، وإنـك تحصـل على المضـاغنـة، وستفضي بـك المبـاينـة إلى المغابنـه،وقيل إنـه كان يكتـب في كل يـوم أجوبـة كتب قـوم لم يكاتبـوه، ويجيبهـم عما فيه لم يخاطبـوه، وخبزت تلـك الملطفات في عجين، لـتفـرّق

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عثر على تلك الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرون أنهم من الناصحين، وتردّدوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبه، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل مايحتاج إليه عادمون، وعلى مافرط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحبا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعاه وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا مالم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويخلفونهم في مناهلهم، وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عرفوا أنهم الجانون حيث لم يلزموا القانون، وأرسلت الصلاحية إلى الملك العادل يستعجلوبه، ويحثونه ولا يهملونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيان البلد وسار وتلا من تقدّمه إلى تل العجول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حاجاته، ويرسله في مهام الرسائل، وكان مدلول الرسالة: أرفق في السير، ووافق على الخير، فما عندك اليوم من يصدْقك، وأنا لك كالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفك، وأوافقك ولا أفارقك، فأشار على الافضل جماعته بأن يرد جواب الرسالة: إن مقاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطه، فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنهم ظفروا، وجدّ جدّهم، واحتدّ حدّهم، فطووا المراحل إلى السائح، وكان الأفضل على بلبيس، وقد تفرّق معظم أصحابه إلى أخبازهم، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الابطاء عاتبوه، فسار الجمعان بعضهم إلى بعض، والتقوا فانكسر أصحاب الأفضل وانهزموا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة وانتهى إلى الأفضل أن جماعة منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم،وانجاح آمالهم ،فقال سيف الدين يازكوج للأفضل: لكل زمان عمل،ولكل أوان أمل، فاصلح الأمر كيف تهيأ، فلا ملام على اللبيب بأي زي تزيا، فشرع الافضل في اصلاح الامر مع عمه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلم الأمر ومر سالما، وحصل له من التجربة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظر للصلاحية في صلاح ضياعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على ماأعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يـومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهـم فتأملهـا، وإن لم تصـدقنـي فتسلمها واعلـم أنهم غـرّوك وضرّوك، وساؤوك بها سرّوك ، وقيل: لم يبـق من الأمراء من لم يكتـب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيـف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضـل صدق عمه سلـم المسألـة،وسـأل المعدلـه، فقـرر لـلأفضل في ديـار بكـر،ميافـارقين وأعمالها، وجبـل جور وحـاني وجملين، والمعاقـل والحصون المحسـوبة مـن ميافارقين، فرضي بها مكـرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلـة السبت سابع عشر ربيع الآخـر في الليلة التي دخـل العادل في بكـرتها القاهرة فـاستقر بـدار السلطنة، وقـدم سيـف الـدين يـازكـوج وحكمـه، واستبقى رضـى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيـز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتمييـز، وأقام وهـو كل يـوم في ارتفاع وسيـاده، وقوتـه في نموّ وزيادة.

قـال: ورد القضاء الى القـاضي صدر الـديـن عبد الملـك بن دربـاس الكردي، ولم يـزل قاضي القضـاة بالديـار المصرية، مـن الأيام النـاصرية وكـان نائبـة القاضي زيـن الديـن على بن يـوسف الـدمشقي، وتعصـب الامراء المتغلبون على الملك العـزيز في مراتبه بصرف صدر الديـن وتولية نائبـه، ولم يزل صدر الـدين مصروفا تـارة بمحيي الديـن بن أبي عصرون، وتارة بـزين الديـن حتى تعصب العـادل له وبعث العـزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيـز وجاء الأفضل كان أوّل ماحمل عليه أن صـدر الدين يعزل، وتولى زيـن الدين القضاء، فلما جـاءت نوبة العادل في هـذه السنة ردّ صدر الـدين إلى منصبه، وردّ التـدريس بـالمدرسة الشافعيـة في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتـب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينيـة، ومدارس الشافعيـة، وربط الصـوفية، وهو قـاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابةالوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانيةفي الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها،ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرتوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال:وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودّعه بثناءجميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبي

ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوا فيا سنتي عن مقلتي غيبي

قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب

الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب

معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب

لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفى تأبيه في الشم الشناخيب(١٤٣)

دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بماراعهم، وملأ بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطىء النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات، ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار منزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السماط في الجامع، ثم ذكر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أوّلها:

مغرم القلب مدنف
وجده ليس يوصف
وعدونا واخلفوا
ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنما أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة الّتي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فخرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.

فصل

في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنةأعني سنة ست وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، واذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أوّل من افتض عذرته، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته دينا، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملتها رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر، فردّه إلى دمشق ليلازم خدمة الملك المعظم ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعاره، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقيل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب مايحرزه من كذا وكذا قنطار.واستقل ماطواه الخزن، وأخفاه الدفن، وقيل كان يكنز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الذي كان مجاورا لها، وأدخله في ربعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي —يعني بمصر— الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر في البحر لايخشى من الغير

فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم ... فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار مايخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قرصه، ويرى

ذلك من خيراته فرصه، فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحينئذ تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سمت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عزه، وأصبح الناس حول سريره مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حماه وعرف ابن تقي الدين، فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال:وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقى بها العلماء المبرزين، وخالط صدورها بني الخجندي، وكان تفقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنتين وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوّض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال:وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدي، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان، وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأمجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وما الناس الا كامل الحظ ناقص
وآخر منهم ناقص الحظ كامل

واني لمثـــــر مـــــن حيــــاء وعفـــــة
وإن لم يكـــن عنـــدي مـــن المال طـــائل

قال: وتـوفي في هذه السنـة قبل الفاضـل بثلاثـة أيام الأثير بـن بنان، وكان مشمولا في الدولتين بكل قبـول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيـع موجـوده، وبذل في نصرتـه غـاية مجهـوده، ولما فرغ مـن شغله أبقاه على رسـم انعامه كلـه، واستمر إمراره واستقـر قراره، وجلس في بيته يسمع عليه رواياته العـالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العـز أملا، ولم يملك عمـلا، حتى تغير خلقه، وتقلـل رزقه، وتبطل حقـه، وآل أمره إلى اعتقالـه بالديون، واحتبـاسه في الرهـون، وممن غاظـه وزير العزيز، وكـان مؤدبه في الصغر، واستـوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه مـاكرهـه، وقال له: مـا أحسن ما أدبـت مخدومك وخـرجته، وعلى مـراتب أخـلاقك درجتـه، وقال للفـاضـل: أنا خلصتـك في أيام شـاور مـرتين، ودافعت عنـك دفعتين، وهذه قصـائدك في مدحـي، ومقاصـدك لمنحـي، وكان يعـرف لتقـادم عهده وانتقـالـه في الحالات، مبادي أربـاب المنـاصـب إلى الغايـات، فكـرهـه النـواب ودحضوه ولمعـارض النـوائب عرّضوه، وكـان بالقاهرة جـاري، وباب داره مقابل بـاب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانه.

- ٨٩٥٧ -

فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد : وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسره، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدّث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي مُنى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت، فلبث يومه لايسمع له إلاّ أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيدا حميدا، فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلاّ وقدّمه، ولا عهداً في الجنة إلاّ أحكمه، ولا عقداً في البر إلاّ أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادىء أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غناه وعنائه، وكنت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب آلائه منسوبا، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضبعي، ويجلب نفعي، وما أوسع درعه للخطاب في شغلي إذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي، وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرية، وعبارته نافثة في عقد السحر، وكانت بلاغته للدولة مجملة، وللمملكة مكملة، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنما نسجت على منواله، ومزجت من جرياله، ورويت بزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الابداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكره، بالعرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الدولة بادالته تدال، والزلة بازالته تزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون، وبعز حمى حمايته يعزون، ولهز عطف عطفه يهتزون ، فإلى من الوفادة بعده، وممن الافادة، وفيمن السيادة ولمن السعادة؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهاده، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره منقادون .

وقد وصفه العماد أيضافي كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضلاء مصر وأعمالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزائنها، أقدّم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر ، كالقطرة في تيار بحره بل كالذرة في أنوار فجره، وهو المولى القاضي الأجل الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزمان العظيم الشان، رب القلم والبيان واللسن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقـادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضـل الذي مـا سمع لـه بمماثل في الأوائل ممـن لو عـاش في زمانه لتعلـق بغباره، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمـدية التي نسخـت الشرائع، ورسخت بها الصنـائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكـار ويقلع الانوار ، ويبـدع الأزهار، وهو ضابط الملك بـآرائه، ورابط السلك بآلائه، إن شـاء أنشأ في يـوم واحد بل في سـاعة مـا لو دوّن لكـان لأهل الضناعة خير بضاعـة، أين قس في مقام حصافته، ومـن حاتم وعمرو في سماحتـه وحماسته، فضلـه بالافضـال حال، ونجـم قبولـه في أفق الاقبـال عـال، لامنٌ في فعلـه ولا مين في قـولـه، ولا خلف في وعـده ولا بـطء في رفده الصادق الشيـم، السابق بالكرم، ذو الوفـاء والمروّه، والصفاء والفتوّه والتقـى والصلاح، والنـدى والسماح، منشر رفات العلـم ونـاشر راياتـه ، وجـالي غيابـات الفضل وتـالي آياتـه، وهو مـن أولياء الله الـذين خصـوا بكرامتـه، وأخلصوا لـولايته قد وفقـه الله للخير كله، وفضـل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مـع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلـة ، ومهماته المستغـرقة في العـاجلة لايغفـل عن الآجلـة، ولا يفتر عن المواظبـة على نوافل صـلاته ونوافل صـلاته، وحفظ أوراده ووظـائفه، وبث أصفاده وعـوارفه، ويختم كل يـوم من القرآن المجيد، ويضيـف إليه ما شـاء اللهمن المزيد ، وأنا أؤثـر أن أفرد لنظمه ونشـره كتابا، فإننـي أغار من ذكـره مع الذين هـم كالسها في فلـك شمسه وذكائه، وكالثـرى عند ثـريـا علمه وذكـائه فـإنما تبـدو النجـوم إذا لم تبرز الشمس حـاجبهـا، وتحجـب نور الغـزالة عنـد إشراقها كـواكبها، وإنـه لايؤثـر أيضا إثبـات ذلك، فأنـا ممتثل لأمره المطاع ملتـزم له قانون الاتبـاع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمنـه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن بـرجائي في ظل أمنه، افترض رضـاه ولا أعترض على مـا يحكـم بـه ويـراه، ولا أقـوم إلا حيـث يقيمني ، ولا أسـوم إلا ما يسـومني ولا أعـرف يد المكتنى غير يده ، ولا أتصـدّى إلا لما جعلنـي بصـدده، وأسأل الله التـوفيـق للثبـات على هـذا

السنن وابتهاج جدده وهو أحق ممدوح بمدحي واقضاهم بحقه، وأسماهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره، ومقاصد معاهدها معموره، وقصائد قلائدها على مجده موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوّلها:

بحياتكم ماعندكم بعدي
فسوى الأسى مابعدكم عندي
ماللاجنة لاعدمتهم
رغبوا عن الاسعاد في الزهد
إن لم يفوا فلقد وفى كرما
عبد الرحيم بذمة المجد
ذو الرتبة الشماء والشرف ال
عالي السنا والسؤدد العد
الناس كلهم له تبع
وفي فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر بنانه فغدا
درّ البيان يساق في العقد
ان سوّد البيضاء بيض من
ثوب الليالي كل مسودّ
قلم أقاليم البلاد به
وثغورها للضبط والسدّ
ملك كتيبته كتابته
فرد بجيش النصر في جند
الأسمر الخطيّ تابعه
في حكمه والأبيض الهندي
والنائبات بحدّه أبدا
مثلومة مغلولة الحد

وهي طويلة.

ثم قال: ولوأوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلايحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرده بقسم لايمتزج بسواه، ولايتبهرج به من في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك ، فلا سبيل إليه إلاّ بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك (١٤٤) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عبد رحيم
يدعى بعبد الرحيم
على صراط سوي
من الهدى مستقيم
ينمي إلى شرف في
ذرى المعالي صميم
مهذب حاز ماشئت
من تقى وعلوم
نسك ابن مريم عيسى
وهدى موسى الكليم
يرى التهجد انسا
في جنح ليل بهيم
مسهد الطرف يتلو
آي القرآن العظيم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:

عبد الرحيم على البرية رحمة
أمنت بصحبتها حلول عقابها

يــاســائلا عنــه وعــن أسبــابــه
نــال السماء فسلــه عــن أسبــابها
والــدهــر يعلــم أن فيصــل خطبــه
بخطــى بــراعتــه وفصــل خطــابها
ولقــد علــت رتــب الأجــل على الــورى
بسمــو منصبهــا وطيــب نصــابها
وأتتــه خــاطبــة إليــه وزارة
ولطــالما أعيــت على خطــابها
مــا القبــوه بها لأن بعلمهــا
أسماءه أغنتــه عــن ألقــابها
قــال الــزمــان لغيره إذ رامهــا
تــربــت يمينــك لســت مــن أتــرابها
اذهــب طــريقــك لســت مــن آرائهــا
وارجــع وراءك لســت مــن أربــابها
وبعــز سيــدنــا وسيــد غيرنــا
ذلــت مــن الأيــام شمــس صعــابها
وأتــت سعــادتــه إلى أبــوابــه
لا كــالــذي يسعــى إلى أبــوابها
تعنــو الملــوك لــوجهــه بــوجــوههــا
لا بــل تســاق لبــابــه بــرقــابها
شغــل الملــوك بها يقــول ونفســه
مشغــولــة بــالــذكــر في محرابها
في الصــوم والصلــوات أتعــب نفســه
وضمان راحتــه على اتعــابها
وتعجــل الاقــلاع عــن لــذاتــه
ثقــة بحســن مــآلها ومــآبها
فلتفخــر الــدنيــا بســائس ملكهــا
منــه ودارس علمهــا وكتــابها

صـــوّامهـــا قـــوّامهـــا عـــلامهـــا
عمالها بـــــــذالها وهـــــابها

وله أيضا من أخرى:

وســـألـــت مـــن أي المعـــادن ثغـــرهـــا
فـــوجـدت مـــن عبـد الـرحيـم المعـدنـــا
أبصرت جـــوهـــر ثغـرهـــا وكـــلامـــه
فعلمـــت حقـــا ان هـــذا مـــن هنـــا
ذاك الكـــلام مـــن الكمال بمنـــزل
لا يـدرك السـاعـي إليـه ســوى العنـا
يـــدنـــو مـــن الافهـــام إلا أنـــه
تلقـــاه أبعـــد مـــا يكـــون إذا دنـــا

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله تعالى من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت من نظمه:

وسيـــف عتيـــق للعـــلاء فـــإن تقـــل
رأيـــت أبـــا بكـــر فقـــل وعتيـــق
فـــزر بـــابـــه فهـــو الطـــريـــق إلى النـــدى
ودع كـــل بـــاب مـــا إليـــه طـــريـــق

وله أيضاً:

سبقتـــم بـــاسـداء الجميـــل تكـــرمـــاً
ومـــا مثلكـــم فيمـــن تحدّث أو حكـــى
وقـــد كـــان ظنـــي أن أســـابقكـــم بـــه
ولكـــن بكـــت قبلي فهيـــج لي البكـــا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبي الذي ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر، قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضي الله عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم في حصن أفاميه، وفيها أو في سنة ست قبلها توفي السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السلجوقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم، خراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيها كتب السلطان العادل للأمير فخر الدين إياز شركس بأعمال تبنين، وهونين، وبانياس، والحوله، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشاره، فحاصره وأنجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في محال مأثراته المحول، وله في الغزوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القصر، حين استتبت على متوليه أسباب النصر، وذلك قبل موت العاضد بمدة، ولما خطب لبني العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهره، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة، وكان معاذ الإلتجاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته وفرط جموده، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده، ولما توفي تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقل إلى العادل عن غلام الأمير أيبك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرّق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلاّ بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العماد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبى، والنحلة، والخطفة بدمشق في أوّل شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

وستمائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة، وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

***

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي الأزهري.

آخر الجزء الثاني من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة رحمه الله.

حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

١ــــسورة الرعد ــ الآية :٩.
٢ــــسورة ابراهيم ــ الآية ٣١.
٣ــــسورة الطارق ــ الآية :٩.
٤ ــ سورة هود ــ الآية: ١٢٠.
٥ ــــسورة القمر ــ الآيات :٤ــ٥.
٦ــــ رواه الإمام الترمزي في كتاب الشمائل
٧ــ انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
٨ــصحيح مسلم ـ ط. دار الفكر بيروت ج٢ ص ١٣٢ ـ باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح.
٩ــانظره في جامع الأصول ج١١ ص ٧٩٢.
١٠ــسورة الحاقة ــ الآية :٨.
١١ــفي حاشية الأصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».
١٢ــسورة الذاريات ــ الآية :٥٥.
١٣ــفي حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفي سنة ٥٦٩، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩.
١٤ــديوان أبي تمام ـ ط. دار المعارف القاهرة ج٣ ص ١٥٢.
١٥ ــفي حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
١٦ــفي حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها.
١٧ــأي لايذكرن بقبيح ، كان يصان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
١٨ـ أي أوضحهم وعداً. القاموس.
١٩ــسنا البرق الشامي للبنداري ـ .القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
٢٠ــفي حاشية الأصل حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني الحنفي، ولقبه شوروه ـ بشين معجمة مفتوحة ، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين ، وآخره هاء ، والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
٢١ــليست هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ إربل.
٢٢ــفي الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
٢٣ــانظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥.
٢٤ــسورة الفرقان ــ الآية: ٦٣.
٢٥ــسورة النور ــ الآية: ٥١.
٢٦ــ سورة الزمر ــ الآية ١٠٠.
٢٧ــسورة الأنعام ــ الآية : ١٦٠.
٢٨ــ سورة البقرة ــ الآية: ٢٦١.
٢٩ــ سورة ص ــ الآية: ٢٩.
٣٠ــ سورة الانفطار ــ الآية: ١٩.
٣١ــ سورة آل عمران ــ الآية ١٩٥.

٣٢— لم تصلنا ترجمة نور الدين في الأجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.
٣٣— انظر الخريدة— قسم بلاد الشام - ج١ ص ١٢٣.
٣٤— تخمط : تكبر وغضب، القاموس.

٣٥—دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
٣٦— الشلق: الضرب بالسوط وغيره.
٣٧— الجث— القطع ، أو انتزاع الشجر من أصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كأكمة صغيرة.
٣٨— أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
٣٩— في هامش الأصل: حاشية - الجناجن - بجيمين ونونين - عظام الصدر.
٤٠— في هامش الأصل: الشرر أحكام الفتل وابرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
٤١— ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
٤٢— من أمثال العرب يعني إبطان غير المظهر.
٤٣— الابرنز: الأمير.
٤٤— وقم: قهر وأذل. القاموس.
٤٥— الكرينة: المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغني.
٤٦— تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني بتهذيب البنداري، - ط. القاهرة ١٩٠٠ ص ١٨٧—١٨٨.
٤٧— القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨— قبر زنكي قرب مشهد الإمام علي رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة، وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
٤٩— تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩— ١٩٠.
٥٠— خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر.أو خبز بلا أدم (بقسماط)
٥١— صحيح مسلم— كتاب الحدود- ٥ ص ١١٧.
٥٢— بزرك: عظيم.
٥٣— سورة التوبة— الآية : ١١١.
٥٤— سورة الصافات— الآية: ٤٤.
٥٥— مرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر» ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة، والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لافرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
٥٦— حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في أنطاكية.
٥٧— ديوان أسامة ص ١٧٠.
٥٨— سورة فاطر— الآية : ٤٣.
٥٩— جفخ : فخر وتكبر.
٦٠— سورة الأنعام— الآية: ٩٦.
٦١— سرطته: بلعته.
٦٢— الزبرج: الزينة

٦٣— يفيل: يخطىء.
٦٤— آخر صفوف الحرب.
٦٥— سدك به لزمه وتولع به.
٦٦— السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.

٦٧— الأرين: النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسيف. القاموس.
٦٨— الأنب— ثمر الباذنجان، والغاصي: القليل المتفرق.
٦٩— الكسم: الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.
٧٠— العرار: الصياح والصراخ.
٧١— الخبار: مالان من الأرض.
٧٢— العلاب— جمع علبة— وهي النخلة الطويلة والقدح الضخم يحلب فيها.
٧٣— الشجن: الحزن والهم، وشجنته الحاجة: حبسته.
٧٤— الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
٧٥— ديوان أسامة ص ١٦٢.
٧٦— ديوان أسامة ص ٧٦.
٧٧— ديوان أسامة ص ٢٩٠.
٧٨— ديوان أسامة ص ٢٨٧.
٧٩— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٠— ديوان أسامة ص ٣٠٦— ٣٠٩.
٨١— القنس: الأصل، أعلى الرأس.
٨٢— ديوان أسامة ص ٤٠— ٤١ (عدة أبيات).
٨٣— كتاب العصا لأسامة— ط. القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٠٧.
٨٤— جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦— ١٣٧.
٨٥— ديوان أسامة ص ٢١٣— ٢١٧.
٨٦— ديوان أسامة ص ١٤٠— ١٤١ مع فوارق.
٨٧— بط الجرح شقه.
٨٨— ديوان أسامة ص ١٧٥ — ١٧٧.
٨٩— الخريدة ـ قسم مصر ـ ط. القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ١٧٣ — ١٨٣.
٩٠— ليست في ديوانه المطبوع.
٩١— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٧٤.
٩٢— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٨٠.
٩٣— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٨٠.
٩٤— ديوان أسامة— ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.
٩٥— سنا البرق الشامي ص ١٩.
٩٦— ليسا في ديوانه المطبوع.
٩٧— سورة الأعراف ـ الآية: ٩٥.
٩٨— الخريدة — قسم مصر ـ ج ١ ص ١٨٩ ـ ٢٠٠.
٩٩— الخريدة — قسم الشام ـ ج٢ ص ٣٥.

١٠٠— سنا البرق الشامي ص ٢٢— ٢٤.
١٠١— انظر سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.
١٠٢— سورة آل عمران— الآية : ٢١٦.
١٠٣— سورة البقرة— الآية: ٢١٦.
١٠٤— سورة النساء— الآية: ٥٤.

١٠٥— سورة النحل— الآية: ٩١.
١٠٦— الخريدة ـ قسم الشام — ج ١ ص ٢٧٧.
١٠٧— سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١٠٨— سورة القصص— الآية: ٨٣.
١٠٩— سورة الرعد— الآية: ٤٣.
١١٠— ديوان عرقلة الكلبي ـ ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٧.
١١١— ديوان عرقلة الكلبي ص ١١٠.
١١٢— ديوان عرقلة ص ٤٩.
١١٣— ديوان عرقلة ص ٦٤.
١١٤— ديوان عرقلة ص ٥٢. الخريدة ـ قسم الشام — ج١ ص ١٨٠.
١١٥— سورة النحل— الآية : ٥٢.
١١٦— سورة النحل— الآية: ٢٦.
١١٧ سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١١٨— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ٢٣٥— ٢٣٧.
١١٩— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤.
١٢٠— كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠/ سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٥٦٧ (٩٠٩ـ ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩م، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثا.
١٢١— ديوان العرقلة ص ٣٧— ٣٨.
١٢٢ـ سورة الصف ـ الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أئمتها صادر عن التعصب ، ذلك أن مسألة النسب مبتوتة من حيث الصحة، أضف الى هذا أن اسم المهدي عبد الله وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسألة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ، ج ١ ص ٧٧— ١٠٧.
١٢٣— سورة الكهف— الآية: ١٠٤. وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل النبوة في كتابي الجامع بأخبار القرامطة ج١ ص ٢٩٥ـ ٣٣٠.
١٢٤— سورة الأسراء ـ الآية: ٥٨.
١٢٥— زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من بعضهما.
١٢٦— متح الماء: نزعه، والمقصود هنا رفع زنكي إلى القلعة.
١٢٧— الخريدة ـ قسم الشام ج ٣ ص ٦٤ـ ٦٥.
١٢٨— طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية لابراهيم المقحفي ـ ط. صنعاء ١٩٨٥.

١٢٩— الخريدة— قسم الشام— ج٣ ص ١٠٣ — ١٠٤.
١٣٠— سورة البروج— الآية: ٢٠.
١٣١— الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٦— ١٨٧.
١٣٢— سورة الشوري— الآية : ٤١.
١٣٣— سورة البقرة— الآية:١٩٤.
١٣٤— ديوان عرقلة ص ٧٠.

١٣٥— منامات الوهراني ومقاماته ورسائله — ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤.
١٣٦— ديوان أسامة ص ١٥٨.
١٣٧— المعرفة والتاريخ للفسوي ـ ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص ٣٦٧.
١٣٨— ليست في ديوان أسامة المطبوع.
١٣٩— سورة التوبة— الآية: ٥٨.
١٤٠— سورة الليل— الآيتان: ١٤ — ١٥.
١٤١ ليست في ديوانه المطبوع.
١٤٢— سورة النبأ— الآية : ٢٠.
١٤٣— الأعلاق الخطيرة— قسم الشام ج٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٨.
١٤٤— سورة الرعد — الآية : ٣٨.
١٤٥— كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة ، ولا وجود لطائية أسامة في ترجمته في الخريدة.
١٤٦— أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام علي كرم الله وجهه.
١٤٧— الخريدة ـ قسم الشام—ج١ ص ٤٠٦— ٤١٩.
١٤٨— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٠٢— ٤٠٣.
١٤٩— سورة الأنعام— الآية : ١٦٤.
١٥٠— الخريدة — قسم الشام— ج٢ ص ٣٣٦— ٣٣٩.
١٥١— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٩١— ٤٩٥.
١٥٢— الخريدة— قسم مصر — ج١ ص ١٠٦.
١٥٣— لاترجمة للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة.
١٥٤— الخريدة— قسم الشام— ج٢ ص ٣٦٤. وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم على أساسها يقوّم نص الخريدة المنشور.
١٥٥— ديوان العرقلة ص ٦٥.
١٥٦— محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان.
١٥٧— سورة فصلت— الآية : ٤٦.
١٥٨— هذا بعض بيت ورد في الحماسة لابي تمام بشرح التبريزي ـ ط. بيُروت ـ دار القلم ج١ ص ٣٤١ والبيت هو:

أبى القتل إلاّ آل صمة إنهم — أبو غيره والقدر يجري إلى القدر.

١٥٩— سورة النساء— الآية : ١٠٠.

حواشي الجزء الثاني من الروضتين

١— الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٣— سورة الأنفال— الآية: ٦١ .
٤— سورة الأعراف— الآية: ٨٧ .
٥— ديوان سبط ابن التعاويذي— ط دار صادر بيروت ص ٤٢٠ —٤٢٤
٦— سورة البقرة— الآية: ٢٤ .
٧— هذه القبور في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها مؤخراً.
٨— انظر موسوعة أطراف الحديث ح ٧ص ٤٤٤،٤٤٧ .
٩— في هذا اشارة إلى قصة الزباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقيل في الأمثال لأمر ماجدع قصير أنفه.
١٠— سورة آل عمران— الآية: ١٩٦ .
١١— سورة المجادلة— الآية: ٢٢ .
١٢— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤ .
١٣— سورة الفجر— الآيتان:١٣—١٤ .
١٥— هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص ٤٠٠٢—٤٠١٣ .
١٦— سورة الواقعة— الآية:٦٥ .
١٧— سورة الزمر— الآية: ٧١ .
١٨— لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة التي بأرض برقة عشرة مراحل.
١٩— سورة طه — الآية: ٣٧ .
٢٠— الخريدة— بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦ .
٢١— سورة التوبة— الآية: ٣٦ .
٢٢— السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
٢٣— سورة آل عمران— الآية: ٢٦
٢٤— سورة الأحزاب— الآية: ٢٧ .
٢٥— سمق سموقا: علا وطال. القاموس.
٢٦— سورة الروم— الآيتان: ١—٢ .
٢٧— سورة مريم— الآية: ٢٦ .
٢٨— التنوع: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.
٢٩— سورة الرحمن— الآية: ١٣ .
٣٠— سورة التين— الآية: ١ .
٣١— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦ .
٣٢— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
٣٣— سورة الفجر — الآيتان: ٧—٨ .
٣٤— موسوعة أطراف الحديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
٣٥— سورة يوسف— الآية: ٨٤ .
٣٦— تدقق رواية العماد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.

٣٧— سورة الفتح— الآية: ٤ .
٣٨— سورة القدر— الآيتان: ٣—٤ .
٣٩— سورة آل عمران— الآية: ١٤٨ .
٤٠— سورة النبأ— الآية: ٤٠ .
٤١— سورة الروم— الآية: ٤٧ .
٤٢— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٤٣— سورة هود— الآية: ٤٣ .
٤٤— سورة فاطر— الآية: ٢ .
٤٥— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٥ .
٤٦— سورة طه— الآية: ٣٧ .
٤٧— سورة الاسراء— الآية: ١ .
٤٨— سورة آل عمران— الآية: ٣٧ .
٤٩— سورة التوبة—الآية: ١١١ .
٥٠— سورة الشورى— الآية: ١٣ .
٥١— سورة النور— الآية: ٥٥ .
٥٢— سورة المائدة— الآية: ٢١ .
٥٣— الفتخ من العقبان اللينة الجناح. القاموس.
٥٤— سورة النحل— الآية: ٩٠ .
٥٥— سورة الأنعام— الآية: ٤٥ .
٥٦— سورة الفاتحة— الآيتان: ١—٢ .
٥٧— سورة الأنعام— الآية:١ .
٥٨— سورة الاسراء- - الآية: ١١١ .
٥٩— سورة الكهف— الآية: ١ .
٦٠— سورة النمل— الآية: ٦٠ .
٦١—سورة سبأ—الآية: ١ .
٦٢— سورة فاطر— الآية: ١ .
٦٣— سورة النجم— الآيات: ١٤—١٧ .
٦٤— انظر الآية ٣٦ من سورة النور.
٦٥— سورة النساء— الآية: ١٧٢ .
٦٦— سورة المائدة— الآية: ١٧ .
٦٧— سورة الأنفال— الآية: ١٠ .
٦٨— سورة النحل— الآية: ٩٢ .
٦٩— سورة الأعراف— الآية: ١٧٥ .
٧٠— سورة الأنفال— الآية: ٦٥ .
٧١— سورة آل عمران— الآية: ١٦٠ .
٧٢— سورة الأحقاف— الآية: ١٥ .
٧٣— سورة النمل— الآية: ١٩ .
٧٤— سورة هود— الآية: ٣٨ .
٧٥— سورة آل عمران— الآية: ١٧٥ .
٧٦— سورة الدخان— الآيات: ٢٥—٢٨ .
٧٧— سورة الفرقان— الآية: ٣٨ .
٧٨— سورة غافر— الآية: ٨٥ .
٧٩— سورة فاطر— الآية: ٣٤ .
٨٠— سورة الزمر— الآية: ٧٤ .
٨١— سورة الأعراف— الآية: ٤٣ .

٨٢— سورة يونس— الآية: ١٠ .
٨٣— سورة ابراهيم— الآية: ٣٤ .
٨٤— سورة مريم— الآية: ٨٤ .
٨٥— سورة الواقعة— الآيتان: ٢٥—٢٦
٨٦— سورة الحجر— الآية: ٤٦ .
٨٧— سورة الطلاق— الآية: ٧ .
٨٨— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٩— سورة التوبة— الآية: ١١١ .
٩٠— سورة التوبة— الآية: ٢٦ .
٩١— سورة الأنفال— الآية: ١٧ .
٩٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٩٣— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٩٤— سورة الحاقة— الآية: ٧ .
٩٥— سورة يوسف— الآية: ٧٧ .
٩٦— الأسل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس.
٩٧— الخربشت بالفارسية: الخيمة— الايوان. نوع من أنواع الدروع.
٩٨— قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان.
٩٩— سورة النساء— الآية: ١٠٠ .
١٠٠— سورة طه— الآية: ١٣٢ .
١٠١— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٠٢— سورة محمد— الآية: ٣٥ .
١٠٣— سورة الأحزاب— الآية: ٢١ .
١٠٤— سورة آل عمران— الآية: ١٥٩ .
١٠٥— سورة التوبة— الآية: ٤٦ .
١٠٦— سورة القمر— الآية: ٨ .
١٠٧— سورة الأنبياء— الآية: ٩٦ .
١٠٨— ديوان حاتم الطائي— ط دار صادر بيروت ص ٥١ مع فوارق.
١٠٩— سورة هود— الآية: ٤٣ .
١١٠— سورة الأنعام— الآية: ٦٤ .
١١١— سورة آل عمران— الآية: ١٢٣ .
١١٢— سورة الأنعام— الآية: ٤٣ .
١١٣— سورة الأنعام— الآية: ٣٥ .
١١٤— سورة آل عمران— الآية: ٣٠ .
١١٥— سورة الانسان— الآية: ٣٠ .
١١٦— سورة الأنعام— الآية: ٩١ .
١١٧— سورة النمل— الآية: ٧٣ .
١١٨— سورة الحشر— الآية: ١٠ .
١١٩— سورة المزمل— الآية: ٦ .
١٢٠— سورة آل عمران— الآية: ١٣ .
١٢١— سورة المائدة— الآية: ٦٤ .
١٢٢— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٢٣— سورة يوسف— الآية: ٤١ .
١٢٤— سورة آل عمران— الآية: ١٦ .
١٢٥— سورة آل عمران— الآية: ١٠٣ .
١٢٦— يروى أن هذا قاله عبد الله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي — مالك بن

الحارث، فنادى بهذا النداء.
١٢٧— الخريدة— قسم الشام، ج ٢ ص ٣٣٤—٣٣٥ .
١٢٨— سورة العاديات— الآيتان: ٩—١٠ .
١٢٩— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٤ .
١٣٠— سورة الرحمن— الآية: ٦٠ .
١٣١— سورة التوبة— الآية: ٤٠ .
١٣٢— المدرسة التي أسسها وحملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.
١٣٣— شعر دعبل بن علي الخزاعي— ط دمشق ١٩٦٤ ص ٧١ .
١٣٤— سورة الحشر— الآية: ٢٢ .
١٣٥— سورة التوبة— الآية: ١٢٩ .
١٣٦— موسوعة أطراف الحديث ج ٥ ص ٤٠ .
١٣٧— لعل في هذا اشارة إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي ﷺ عندما سمعة للمرة الأولى فقال: «إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه ..... ».
انظر مغازي الزهري— تحقيقي —ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٣٢ .
١٣٨— سورة القلم— الآية: ٤ .
١٣٩— سورة التوبة— الآية: ١٢٠ .
١٤٠— سورة يس— الآية: ٧٨ .
١٤١— سورة البقرة— الآية:١٩ .
١٤٢— سورة العنكبوت— الآية: ٦٩ .
١٤٣— الشنخوب: أعلى الجبل. القاموس.
١٤٤— الخريدة— قسم مصر — ج ١ ص ٣٥—٥٤ .

المحتوى